حياة للعلم: مسارات وشهادات

التجربة الفكرية والأكاديمية لنخبة من أهم المؤلفين والمفكرين العرب

طه عبد الرحمن - محمد أبو موسى - ناصر الدين سعيدوني

جيرار جهامي - أيمن فؤاد سيد - مصطفى عقيل الخطيب

غانم قدوري الحمد - فيحاء عبد الهادي - سعد البازعي

قطب مصطفى سانو

جائزة الدوحة للكتاب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة للعلم:
مسارات وشهادات

التجربة الفكرية والأكاديمية
لنخبة من أهم المؤلفين والمفكرين العرب

محمد أبو موسى - ناصر الدين سعيدوني - طه عبد الرحمن
جيرار جهامي - أيمن فؤاد سيد - مصطفى عقيل الخطيب
غانم قدوري الحمد - فيحاء عبد الهادي - سعد البازعي
قطب مصطفى سانو

حياة للعلم: مسارات وشهادات

التجربة الفكرية والأكاديمية لنخبة من أهم المؤلفين والمفكرين العرب

"الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي جائزة الدوحة للكتاب العربي"

جميع الحقوق محفوظة

العنوان: مارينا توين تاورز B، الطابق 28، مكتب 283، مدينة لوسيل، قطر

الهاتف: 5888 5131 974+

البريد الإلكتروني: info@doha-book-award.qa

الموقع الإلكتروني: www.doha-book-award.qa

DohaBookAward

المحتويات

المقدمة 7

محمد أبو موسى 11

ناصر الدين سعيدوني 17

طه عبد الرحمن 33

جيرار جهامي 45

أيمن فؤاد سيِّد 53

مصطفى عقيل الخطيب 61

غانم قدوري الحمد 69

فيحاء عبد الهادي 79

سعد البازعي 89

قطب مصطفى سانو 101

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين. هذه شهادات جاءت من وحي حدث. كان الحدث تأسيسيًّا، وكان التأسيس ذا صلة بالكتاب وأهله ومحبيه. أصحاب الشهادات العشر هم من اختارتهم **جائزة الدوحة للكتاب العربي** للتكريم، ومن ثمّ الإعلان عن نفسها في الدورة التأسيسية (مارس، 2024)، وسط جمهور من العلماء والباحثين والمثقفين الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ومن شتى أنحاء المعمور ليشهدوا الحدث.

أغلب انطباعات من شهد الحفل التأسيسي لهذه الجائزة الغراء كانت تتجه إلى الإعجاب أولًا بالقيمة العلمية لأعمال هؤلاء الكوكبة الفاضلة من العلماء والمفكرين، ثم ثانيًا بالطابع التعددي والتكاملي

لحقـول المعرفـة التـي ينتمـي إليهـا هـؤلاء: اللغـة وعلومهـا، الفلسـفة والتاريـخ، علـم أصـول الفقـه والقـراءات، ثـم النقـد الأدبي والبلاغـة.

وقـد اخترنـا أن تحافظ جائـزة الدوحة للكتاب العـربي على هذا الطابع التعـددي الذي يروم تشـجيع الإبداع العلمـي والإنتاج الفكري الرصين في الحقـول الخمسـة التاليـة: الدراسـات اللغويـة والأدبيـة، الأبحـاث التاريخيـة، العلـوم الشرعيـة، الدراسـات الاجتماعيـة والفلسـفية، ثـم التحقيـق وصناعـة المعاجم والموسـوعات.

لا يمكننا إلا أن نهنئ كل من سـعى لتأسـيس صرح هذا العمل الماجد وعمـل على دعمـه ماديًّـا أو معنويًّا، فلا يخفـى على كل ذي بصيرة أن دعم البحـث العلمـي والجهد الفكري هو من علامات الرشـد في السياسـات الثقافيـة للـدول والمؤسسـات، فلا يمكن أن تقوم قائمـة للفعل الثقافي أو البحـث العلمي دون سياسـة واعيـة بأهمية القول العلمـي والبناء المعرفي في حيـاة الأمم.

في هـذه الأوراق المنشـورة التـي فضلنـا أن نبقيهـا على طابعهـا العفـوي، مطبوعـة بأثـر ذلـك الحـدث التأسـيسي، أخـذ كل واحـد مـن المكـرمين مسـافة مـن مسيرتـه العلميـة، ليتأمـل بعـض معالمها ويسـائل بعـض محطاتهـا أو يـعبر عن بعـض ملامحهـا المعرفية؛ فكانت الشـهادات متنوعـة، ركـز بعضها على المسـار العلمـي باعتبار الجانـب التحصيلي منذ

الطفولـة، وصـولًا إلى النضـج الفكـري، واختـار بعضهـا الآخـر تبيـان القضيـة الفكريـة المركزيـة التـي صاحبـت مسـارهم العلمـي ومنحتـه معنـاه وغاياته.

نهيـب بقـارئ هـذه الشـهادات أن يتدبـر هـذه المسـارات الحياتيـة والعلميـة، ويتأمـل فـيما أثمرتـه مـن إنجـازات ينتفـع بهـا النـاس، ومـا عبرت عنـه مـن طموحـات يتطلـع إليهـا كـثير منـا، ومـا حققتـه مـن مشـاريع علميـة أو فكريـة يسـتنير ببعـض محتواهـا في رفـد سـعيه لبنـاء شـخصيته الفكريـة والمعرفيـة. والله من وراء القصد وهو يهدي السـبيل.

عبد الواحد العلمي

المدير التنفيذي للجائزة

محمد أبو موسى

الحمد لله الذي أكرمني بلقاء هذه الصَّفوةِ من كرام كُتَّابنا الذين عاشوا في الذي عِشْتُه، وأُصلِّي وأُسلِّم على سيدنا محمدٍ -صلواتُ الله وسلامُه عليه- وهو الذي لنا فيه قدوةٌ حسنةٌ، والذي كان كلُّ عمله لله، وكلُّ عملٍ خالصٍ لله هو عملٌ في عمارةِ الأرض التي استخلفَنَا اللهُ فيها، ومَن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيرًا في هذه الدنيا، أي في عمارةِ الأرض، يرَ مثقالَ ذرةٍ خيرًا في الآخرة، وكلُّ الذي في الآخرة هو لإصلاحِ وصلاحِ هذه الدنيا ومعيشتِنا فيها.

وبعد،

فإن الحديثَ عن المسيرةِ العلميةِ لمن هو في مثل سِنِّي حديثٌ مُحَبَّبٌ؛ لأنه يَرجع بي إلى زماني الأول. وأبدأ الحديثَ بعد التخرجِ في كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر وقد عُيِّنتُ معيدًا بها، وكانت الجامعةُ

هـي التـي تُحدِّدُ لنـا التخصص؛ لأن الطالـبَ يُعيَّنُ معيدًا في القسـم الذي حصـل فيـه على أعلى درجةٍ في سـنوات الكلية الأربـع، وكنتُ الأوَّلَ على الكليـة في السـنوات الأربع في علـم البلاغة.

كان تعييني مُعيـدًا مـن أهمِّ أيـامِ حياتي؛ لأنني سـأتفرغُ للقـراءة التي كانـت كلَّ حُبِّـي مِـن يـومِ أن حَمَلْتُ الكتـاب، وكنتُ أقـرأ أيَّ كتابٍ يقع في يـدي، حتـى إننـي قلتُ يومًا لنـفسي: لو عَلِمْـتُ أن إبليسَ أَلَّـف كتابًا لحاولـتُ الوصـولَ إليـه؛ لأني لا أخـافُ على نـفسي من قـراءة الشر؛ لأن اللهَ -سـبحانه- أسـكنَ في نـفسي عقلاً يُميِّـزُ بين الصَّوابِ والخطـأ، وبِناءً على هـذا الاعتقـاد كتبـتُ يومًـا في بعـض كُتبـي أنني أقـرأ كلامَ الآخرين لأعـرفَ كيـف يُفكِّـرون لا لأُفكِّـرَ كما يُفكِّـرون، لأني لـو فكـرتُ كما يُفكِّـرون أكـونُ قـد دمَّـرْتُ عـقلي الـذي هـو مِـن أكـرمِ نِعَـمِ الله عليَّ، ولأعـرفَ أيضًـا مـاذا يقولـون، لا لأقـولَ مـا يقولـون، لأني لـو قلتُ ما يقولـون لدمَّـرْتُ ثقافـةَ أُمَّتي، وهـي خيرُ أُمَّةٍ أُخرجت للنـاس، ثم رأيتُ القـرآنَ الكريـمَ لم يَضـعْ لنا خطوطًا حمراءَ في القراءة؛ لأن الله -سـبحانه- حكـى لنـا فيـه مـا يقولُـه أعداؤه؛ مِـن مثـلِ قولهـم: ﴿مَـا هِـيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَـا نَمُـوتُ وَنَحْيَـا وَمَا يُهْلِكُنَـا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، وغيرُ ذلـك كثيرٌ جدًّا، وأنه -سـبحانه- بَيَّنَ لنـا الرُّشـدَ مـن الغَيّ، وأقـام على الحقِّ البرهـانَ القاطع،

وتَركَنا وما نَخْتَار، وعلى هذا الأساسِ بدأتُ حياتي متفرغًا للقراءة، وصار العلمُ هو الشَّاغل الذي يَشْغَلُنِي عن كلِّ شاغل.

وكان من أهدافي الأولى أن أُيسِّرَ لغةَ العلم الذي تخصَّصْتُ فيه لطلاب العلم؛ لأننا كنا وما زلنا نَدْرُسُ كُتبَ أوائلنا في الأزهر وهي مكتوبةٌ بلغةِ زمانهم، وكانوا يقولون: "كتابُ سِيبويه كتابٌ جيد، ولكنه كُتِبَ بلُغةِ زمانِه". ورأيتُ علماءنا في كلِّ جيلٍ يُعيدون كتابةَ كلِّ علمائنا حتى تكون لغةُ العلمِ قريبةً من طلاب العلم، وشَرْطُ هذا التيسيرِ أن يَحتفِظَ بدقائقِ المعرفة، وأن يَزيدَها بيانًا يَشرحُ مُبهَمَها ويُفصِّلُ مُجمَلَها، وأن يقفَ عند ما يجبُ الوقوفُ عنده، وأن يكون فيه نَفَسُ كاتبِه، وألا يُسْتَغْنَى بقراءةِ غيرِه عنه، ورأيتُ في كلام علمائنا قَدْحًا صريحًا في الكتابِ الذي يُستغنَى بقراءةِ غيرِه عنه.

ثم رأيتُ أن علمَ البلاغةِ في كُتبِه الجليلةِ التي تَبنِي العقلَ يُوشِكُ أن يكونَ علمًا عاطلًا؛ لأن المقصودَ منه هو التعرُّفُ الواعي على تحليلِ البيانِ واستخراجِ أسراره، وأن دخولَ مسائلِ البلاغةِ في تحليلِ أسرارِ الشعرِ والنثرِ في حاجةٍ إلى دُرْبةٍ طويلةٍ واجتهادٍ وتَعلُّمٍ، لا تَقِلُّ عن الحاجةِ إلى تحصيلِ دقائقه، وأن حِفْظَكَ لِمَعرفةِ معاني التقديم والتأخيرِ والتعريفِ والتنكير.. إلى آخرِه، مع حِفظِ الشواهدِ المذكورةِ في الكُتبِ لا يُغْنِي، وإنما لا بد أن تُدْخِلَ كلَّ مسائلِ العلمِ في تحليل البيان، وإلا

بَقِيَ العلمُ عاطلًا لا يُنتفَعُ به، وقد استعاذَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- من علمٍ لا يَنفع، وكأنَّه يقولُ لنا: "حَوِّلوا كلَّ ما تعلمون إلى واقعٍ في حياتكم"؛ فاتجهتُ إلى التحليل، ولم أصطحب في هذا التحليلِ إلا هذا العلم، وكتبتُ في الشعرِ الجاهليِّ ما كتبتُ، وفي كلامِ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- وفي القرآنِ الكريم، ويقيني أن الجيلَ في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى المزيد من علمِ تحليل البيان.

ثم إنني كنتُ وما زلتُ أرى أن قَصْرَ الكُتبِ والمعرفة على المتخصصين، وتَرْكَ سوادِ الأمةِ الأعظمِ بمَعْزِلٍ عن العلمِ والكِتَاب ليس هو الطريقَ الأفضل، وأننا نُهمِلُ كتلةً كبيرةً من أجيالنا، والأُمَّةُ لا تَنهَضُ إلا بكلِّ أبنائها، ورأيتُ مِن أوائلنا مَنْ كَتبَ كُتبًا جليلةً للأمَّةِ كلِّها، مِثْلَ كتابِ **عُيون الأخبار** و**العِقْد الفريد** و**زهر الآداب** فكتبتُ عن هذه الكتبِ التي تُخاطِبُ كلَّ طبقاتِ الأمَّة، ويرى فيها العَالِمُ ما يَنفَع.

وحُبِّب إليَّ هذا الذي أنا فيه، وصِرتُ أُزاوِلُه بحُبّ، فاعتذرتُ عن كلِّ عملٍ إداريٍّ يَصرِفُني عنه، وانقطعتُ له انقطاعًا كاملًا، ويقيني أن إعدادَ الأجيالِ القادمةِ مِنْ أوجبِ الواجبات، إن لم يكنْ هُو أوجبَ الواجبات، وأن هذا الواجبَ يَفرِضُ علينا أن نُعدَّ لمستقبل بلادنا مَنْ هُمْ أفضلُ مِنَّا، وأن يكون هذا عامًّا في كل علمائنا؛ فعالِمُ الطبِّ يجبُ أن يُعِدَّ للبلاد مَنْ هو أعلمُ منه، وعَالِمُ الرياضيات يجبُ أن يُعِدَّ للبلاد

مَـنْ هـو أفضـلُ منـه، واجتهـدتُ في ذلـك راجيًا أن أُعِـدَّ لمسـتقبلِ بلادِنا مَـنْ هـم أفضلُ منَّـا، وكنتُ شـديدَ العنايـة بالمتميزين مـن طلاب العلم، وكان لا يعنينـي مـا يفعـلُ الآخـرون، وإنما الـذي يعنينـي هـو أن أبـذلَ أقصى طاقتـي في تحقيـق هـذه الغايـات، ولم ألتفـتْ لحظةً واحـدةً إلى رأي الآخريـن فـيما أكتب، ويقينـي أن خدمةَ أجيـالِ الأمةِ هي وجـهُ الله، وأن خدمـةَ الـبلاد هـي وجـهُ الله، وأن مِـدادَ العـلماء يُـوزنُ بدمـاء الشـهداء، وكان قولُـه تعـالى: ﴿وَمَـن يَخْـرُجْ مِـن بَيْتِـهِ مُهَاجِـرًا إِلَى الله وَرَسُـولِهِ ثُـمَّ يُدْرِكْـهُ الْمَـوْتُ فَقَـدْ وَقَعَ أَجْـرُهُ عَلَى الله﴾. أقولُ: كانتْ هـذه الآيةُ تُريحني جـدًّا، وتُقنعنـي بـأنَّ بَـذْلَ أقصى الجُهدِ هـو الذي عليَّ، وأرجـو من الله أنْ يَعْلَـمَ مِنِّـي الصـدقَ في الـذي أعمَلُه، والآيةُ تقـولُ لي: إنَّ مَـنْ جَدَّ لِيصلَ إلى الخير وهـو صـادقٌ، ثـم لم يَصِلْ، فأجـرُه على الله.

وإذا قلـتَ لي: إن الفقيـهَ هـو الـذي يَستخرجُ مـن الفقـه فقهًـا، وعَالِمَ الطـبِّ هـو الذي يستخرج مـن الطبِّ طبًّـا؛ لأن كلَّ عِلمٍ عامـرٌ في باطنه بالـذي هـو أفضـلُ مـن ظاهـرِه، وكلَّ فكـرةٍ وراءهـا فكـرة، فما الـذي اسـتخرجتَ أنت؟

قلـتُ لـك: إن هـذا لم يَغِـبْ عنِّـي، وكلُّ هـذا حاولْتُـه، وحسـبي أني بذلـتُ أقصى مـا عنـدي، وهـذا هو الـذي أملكـه، وكان من أهـم تكريم هـؤلاء الكـرام لي أننـي أحسسـتُ أني عَمِلْـتُ شـيئًا؛ لأن حـقَّ الله عليَّ، وهـو حـقُّ هـذه الأمـة عليَّ، أكبرُ بكـثيرٍ مِـن كلِّ الـذي فعلـتُ.

ناصر الدين سعيدوني

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين. وبعد، فإني أتوجه في مستهل كلمتي بأصدق عبارات التحية الخالصة والترحاب الأخوي لهذا الجمع من العلماء الأفاضل، والكتاب المبدعين، والأساتذة المتميّزين، والمدعوين الكرام المقدّرين للعلماء والكتاب، على ما نلته من استقبال أخوي وضيافة كريمة، وما حظيت به من رعاية من القائمين على هذه الفعالية العلمية.

وبهذه المناسبة الطيبة، أُعرب عن خالص التحية والشكر والامتنان للقائمين على هذه الاحتفالية المباركة التي أعتبرها أعز هدية وأغلى اعتبار أحظى به بعد سنوات طوال في معايشة الكتابة.

حقا إنها لحظات فارقة في العمر أن يحظى شخصي المتواضع بهذا التكريم، بعد أن قضيت زهرة سنوات العمر بين صفحات الكتب

وسطور الأوراق، وهذا ما يشعرني بقيمة الوجود، ويؤكد لي أن الحياة عمل يُنجز ورسالة تؤدى. بيد أن التكريم يُشعرني بمسؤولية ثقيلة وتكليف معنوي يُلزمني مواصلة الطريق في ميدان التأليف ومجال الفكر قولًا وعملًا.

سوف أتناول في كلمتي هذه مكانة الكتاب وقيمته في عالم المعرفة وفي نهضة الأمم ورقي الشعوب، وقبل ذلك أود أن أعرج على تجربتي الخاصة في دروب المعرفة والتأليف الوعرة، والتي صنعتها البيئة التي نشأت فيها والظروف الخاصة التي عشتها. فقد شاء الله أن أرى النور في فترة متميزة من تاريخ الجزائر ألا وهي فترة الحرب العالمية الثانية، في زمن بدا فيه بنيان الدولة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر يتداعى، حينما ازداد فيه وعي الجزائريين بضرورة العمل على تحقيق استقلالهم السياسي، كما أكّدته أحداث الثامن من مايو 1945 التي قُمعت بالحديد والنار، ليولد من آلامها الكفاح المسلح بعد أقل من عشر سنين، محدثًا أكبر انقلاب في التاريخ المعاصر للشعب الجزائري، وهو الثورة الجزائرية التي لا تزال ارتداداتها تؤثر حتى يومنا هذا في الواقع الجزائري.

أما على المستوى الأسري فإن انتمائي لأسرة دين وعلم في وسط ريفي تقليدي أسهم في بلورة شخصيتي في ظروف اقتصادية واجتماعية

صعبة كانت بمثابة التحدي الذي يقوي شخصية الفرد ويدفعها إلى الاجتهاد والمثابرة والحرص على مواصلة التحصيل العلمي وحب القراءة، فكنت منذ صغري أقضي ساعات طويلة أطالع وأكتب وأقارن، وظل هذا السلوك ملازمًا لي في مراحل الشباب والكهولة والشيخوخة.

لم تكن مسيرتي سهلة بحكم الظرف الاجتماعي والأسري والأحوال السائدة في الجزائر نهاية الفترة الاستعمارية، فلم أتبع طريق التعليم الرسمي المُمهِّدة لسبل النجاح المادي والاندماج المهني في المنظومة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية التي أوجدها الواقع الاستعماري بالجزائر، وإنما بدأت دراستي الابتدائية في المنظومة التربوية الموازية التي أوجدتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المعروفة بالتعليم الحر. وكانت بداية المشوار في مدرسة التهذيب بالتلاغمة، المدينة الصغيرة القريبة من مسقط الرأس؛ ثم اتسعت آفاقي بعد دخولي حاضرة الشرق الجزائري قسنطينة وقد تجاوزت سن العاشرة، حيث انتسبت لمدرسة التربية والتعليم بها، قبل أن أنخرط في الدراسة الثانوية في نفس المدينة بمعهد عبد الحميد بن باديس والكلية الكتانية، لتكون لي بعدها تجربة تدريس قصيرة في مدينتي عنابة ثم بجاية.

وقد اتسعت الآفاق مجددًا بشكل غيّر مجرى حياتي، عندما تخطيت حدود الشرق الجزائري، وقدمت عاصمة البلاد مدينة الجزائر، وكانت الثورة الجزائرية آنذاك في شهورها الأخيرة وقد بدأت تباشير الاستقلال تلوح في الأفق، فكان هذا التحوّل ثورة في حياتي الشخصية تزامن مع تحول جذري في التاريخ الجزائري. ففي السنوات الأولى للاستقلال نلت أولى الشهادات الجامعية، وتأكد ميلي إلى التخصص في مجال التاريخ، فتحصلت على شهادة الكفاءة في التاريخ والجغرافية من معهد الدراسات العربية العليا، جامعة الجزائر، محرزًا الرتبة الأولى في دفعة التخرج (يونيو 1966)، ثم حصلت على شهادة الليسانس في التاريخ من كلية الآداب بجامعة الجزائر بتقدير "جيد" (يونيو 1969)، ثم على شهادة الليسانس في الجغرافية من نفس الكلية والجامعة بتقدير "جيد" أيضًا (يونيو 1971).

وخلال فترة التكوين الأولى هذه بدأت شخصيتي العلمية تتبلور وتنضج، وانفتحت أمامي أبواب التدريس الجامعي بمناقشة أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الجزائر بتقدير ممتاز في منتصف سبعينيات القرن العشرين (1974). وهنا ينتهي ما يمكن أن نعدَّه المرحلة الأولى من مساري، والتي استطعت خلالها أن أجد لي موقعًا تحت الشمس بالجهد والمثابرة، رغم ظروف الانطلاقة الصعبة.

تلت هذه المرحلة الأولى مرحلة ثانية استمرت من أواخر السبعينيات إلى يومنا هذا، وهي بمثابة مرحلة تأكيد الوجود الأكاديمي والمهارات البحثية من خلال الكتابة والنشر، والتي كان حجر الزاوية فيها مناقشة رسالة دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الإنسانية (تاريخ حديث ومعاصر) بكلية الآداب بجامعة إيكس-آن-بروفانس (فرنسا) بتقدير "مشرف جدًّا" (مايو 1988).

وأثناء ذلك أقبلت على التأليف، وكأنني أسابق الزمن وأسترجع الوقت الضائع، فكنت أخصص جلّ وقتي للكتابة، وأعالج مواضيع عديدة وفي وقت واحد، رغم ما في ذلك من مصاعب ومشاق، محاولًا عدم الانسياق وراء الإنتاج الكمي والتضحية بالجودة والنوعية والتسرع في النشر دون تصحيح وتدقيق وتمحيص، فكنت أخصص حيزًا كبيرًا من الوقت والجهد لمراجعة ما أكتبه تكرارًا ومرارًا، حتى يخرج النص متكاملًا خاليًا من النقائص والهفوات معنى ومبنى ما أمكنني ذلك.

ثم اتسعت تجربتي التعليمية والأكاديمية والبحثية في البلاد العربية والغربية، فعملت أستاذًا متفرغًا بجامعة آل البيت بالمفرق (الأردن) (1966-1998)، وأستاذًا في جامعة الكويت (2001-2011)، فكانت

تجربتي خارج الجزائر نافذة على الشرق العربي والغرب الأوربي من خلال التدريس والمشاركة في مشاريع بحث دولية.

وفي نفس الوقت تنوعت وتشعبت اهتماماتي العلمية، فبعد أن ركّزت في بداية مشواري الأكاديمي على الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، خاصة الجانب الاقتصادي منها (حتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين)، أصبح لي اهتمام في السنوات الأخيرة بمجالات بحث مختلفة، منها على سبيل المثال الدراسات الوقفية، والدراسات التراثية بمعناها الواسع، ومناهج وأسس الكتابة التاريخية ومدارسها في أوروبا والعالم العربي.

وترافق ذلك مع شغفي باستكشاف الوثائق التاريخية الأساسية والمخطوطات الأصلية ونشر وتحقيق بعض منها وترجمة البعض الآخر. وفي نفس الوقت تبلورت نظرتي الجغرافية المكانية للتاريخ بمباشرة مشروع مدونة للمدن والأماكن الجزائرية ودائرة المعارف الجزائرية. ومن حيث لا أدري وجدت وتيرة الكتابة لديّ تتسارع، فقد صرت أشعر بحاجة ملحّة لتدوين أفكاري. وقد أيقنت بحكم التجربة بأن كل ما يبقى من الأستاذ الباحث الجامعي هو ما يكتبه ويترك أثره على الورق، وما عداه من عروض خطابية في المؤتمرات

والمهرجانات، بل وحتى ما يُلقى من المحاضرات في المدرجات، هو زائل منسي لا محالة إذا لم يُنشر.

لقد جعلني مساري هذا أعتقد جازمًا أن الكتاب هو خلاصة تجربة الإنسان المدوّنة ونتاج العقل البشري في الزمان وعطائه في المكان وفاعليته في الأذهان؛ فهو الذاكرة المسجلة للعطاء الفكري والتطور الحضاري، كما أنه محضن للمعرفة، ومستودع للأفكار، وبوتقة للإنجازات والابتكارات؛ بحيث لا أجد إطارًا يستوعب موضوع الكتاب، ويحدد أبعاده الكثيرة، كما أنه ليس هناك مفهوم يضبط مواصفاته لأن محتواه هو نتاج مركب لجهد المؤلف، وعصارة فكر المثقف. فالكتاب يعبر عن حركية الحياة، ورفض الإنسان المبدع للجمود، وتطلعه للجديد، لكونه خزّان المعارف البشرية، وحافظة مآثر الإنسان، منذ بدايات الكتابة إلى زمن المعلوماتية الذي نقل الكتاب من ورقات تُقرأ إلى لوحات ضوئية تُستعرض.

لقد كان لأجدادنا العرب دور رائد في مسيرة الكتاب، ورسالة مشرفة في المحافظة على معارف الإنسان من خلال الاهتمام بالمخطوطات، وإقامة خزائن الكتب، وتشجيع صنعة الخطاطين في الحواضر العربية الإسلامية التي بلغت أوجها في بغداد العباسية وقرطبة الأندلسية وغيرها من الحواضر الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، والتي

خلفتها في الريادة في مجال الكتاب أوروبا الحديثة بعد اختراع فن الطباعة وانتشار الكتاب المطبوع.

في المقابل تراجع الاهتمام بالمخطوطات، ولم يحظ التأليف بما يستحقه من تشجيع في العالم الإسلامي في العصور الحديثة، وكان أثر ذلك انطفاء جذوة الروح المبدعة، وتبلد الإحساس بالوجود، وخمود الذاكرة. فانحسر عطاء الحضارة العربية الإسلامية مع تقلص الاهتمام بالتأليف، وعدم الاعتناء بتسجيل التراث، وتأليف الكتب الكفيلة بنشر المعرفة وتطوير المجتمع؛ واستتبع ذلك انغلاق كادت تفقد فيه الشعوب العربية الإسلامية في القرون الحديثة هويتها في تعاملها مع الآخر، وصار حالها مثل من يتخلى عن لباسه ليرتدي لباسًا آخر لا يتناسب مع ذوقه ومقاسه.

ثم كانت النهضة العربية محاولة لإحياءِ الضمير واسترجاع الهوية؛ وكان مؤشرها في القرن التاسع عشر ظهور الطباعة، وانتشار الكتب، وتطور حركة التأليف. فكان الكتاب العربي العامل الرئيس في النهضة العربية الحديثة، لكن الفارق الحضاري بين واقع العرب ومستوى الغرب الأوروبي، يجعل الكتاب العربي وضرورة تطويره والرقي به في مقدمة مشاريع تنمية المجتمع والارتقاء به، ما دامت معركة الكتاب العربي تحدد مصير الثقافة العربية، بل مستقبل الأمة

العربيـة، ممـا يتطلـب بـذل الجهـود والعمـل الجاد مـن أجـل ربـح هـذه المعركـة الحضاريـة المصيرية.

هـذا ومـا دمنـا محكـومين بواقعنا العـربي، فإننـي أرى مـن الضروري الوقـوف عنـد خصوصيـة الكتـاب العـربي، لكونـه وسـيلة التفاعـل الفكـري بين أبنـاء الأمـة، والأداة المهيـأة لبنـاء البيـت العـربي المندمـج اجتماعيًـا والموحـد لغويًـا والمتواصـل ثقافيًـا، ممـا يتطلـب منـا تحديـد خصوصيتـه.

فالكتـاب العـربي يحمل إرثًـا حضاريًـا غنيًّا يصعب الإحاطـة به، وقد يتعـذّر اسـتيعابه وتمثلـه في حالتـه الراهنـة؛ كما أنه يعبر عن ذاكـرة تاريخية مشـحونة بذكريـات مرتبطة بالنفسـية العربية ومحمّلـة بطموحات واعدة غير مفعّلـة. فـضلًا على أن صيرورة الكتـاب العـربي تنـدرج في الإسـهام الإنسـاني في بعـده التاريخي وفي مجالـه الجغرافي وفي خصوصيتـه المعرفية، تتحكـم فيـه جدليـة التاريـخ لتجعـل منـه وسـيلة تبـادل وجسر تواصل وقنـاة ترابـط معـرفي، بل تفاعـل فكري.

ومـن خلال خصوصيته، يشـكل الكتاب العـربي الأداة الفعالة لولوج عـالم الفكر والإسـهام في نمو المعرفة الإنسـانية، ووسـيلة للرقـي بالثقافة العربيـة الإسلاميـة. لكـن واقـع الكتـاب العـربي اليـوم يسـتوجب إيجاد

حلـول للمعوّقـات التـي تعترضـه، ووضـع حوافـز للعوامـل الإيجابيـة الكفيلـة بالرقـي به.

فمـن العراقيـل والعوائـق التـي تـعترض تطويـر مجـال الكتـاب وتحد مـن عطائـه المعرفي:

1. ضعـف صناعة الكتـاب في العالم العربي المتصفـة في أغلبها بمحدودية الـنشر كمًّا ونوعًـا، وبالبـطء في الإصـدار مقارنـة بفضـاءات ثقافيـة أخـرى؛ ومـرد ذلـك غياب صناعـة حقيقيـة للكتاب كما هـو موجود في البيئـات الغربيـة، ممـا يسـتوجب مضاعفـة الدعم لهـذه الصناعة في البدايـة حتى يشـتد سـوقها وتعطـي ثمارها.
2. نفـور دور النـشر مـن التأليـف الـذي يطـرح إشـكاليات عميقـة ومعقـدة، وتفضيـل كتـب التسـلية والثقافـة العامـة؛ وهـذا مـا جعل الثقافـة العربية حبيسـة سردیات سـطحية ومحسـنات أدبيـة، خلافًا لما يوجـد في بيئـات ثقافيـة أخرى. ولعـل مرد هذا المنحى طبيعـة الثقافية العربيـة التـي أضر بهـا الكسـل الفكري ومرض التحسـس المفرط من الـرأي المخالـف، ممـا انعكـس سـلبًا على تطـور الإنتـاج الفكـري في العـالم العربي.

3. طغيان المعالجات السطحية والتوجه إلى ثقافة الترفيه المتصفة بالمحتوى السطحي والثرثرة الثقافية، مما أوجد أزمة مقروئية، خاصة بالنسبة إلى الأجيال الجديدة التي يستهويها العالم الافتراضي، وتتقبل الأفكار الجاهزة التي يحاول أصحابها كسب الأنصار الظرفيين، والاستفادة من المردود الذي تقدمه المنصات الإلكترونية من قبيل اليوتيوب.

4. الخطر الذي تشكله المغالاة في النشر الإلكتروني الذي يهدد مستقبل الكتب والمجلات باعتبارها منتوجًا ماديًّا محسوسًا، فالبون شاسع بين قراءة كتاب إلكترونيًّا وقراءته ورقيًّا؛ إذ تُطرح هنا مسألة التركيز والتعمق والصبر على القراءة والفهم في القراءة الورقية، عكس ما تدفع إليه القراءة الإلكترونية من بحث عن المعلومة الجزئية وتحصيلها السريع.

5. التحدي الذي يمثله "الذكاء الاصطناعي" الذي يجعل من الصعب أكثر فأكثر التفريق بين العمل المبدع الخالص والعمل الذي تنتجه الآلة، وتلك معضلة سوف تُطرح بحدة بالنسبة إلى الأجيال القادمة، مما يوجب وضع الآليات والتقنيات التي تسمح بتمييز الأصيل المبدع عن المنتحل المبتدع.

6. حركة الترجمة الضعيفة في العالم العربي من مختلف اللغات العالمية، واعتبارها نشاطًا ثانويًّا، بينما هي في الواقع مجال إبداع لا يقل أهمية عن التأليف مما يجب تشجيعه لنقل روح العصر إلى اللغة العربية، فالهدف من الترجمة ليس وظيفيًّا، أي فهم النص الأجنبي والوصول إليه، وإنما هو تملّك الفكر وتمثله في الثقافة الأصلية.

7. النظرة التجارية المحضة للكتاب من أغلب دور النشر بفعل البحث عن المردود السريع على حساب الجودة. فتكاد حركة النشر تقتصر في بعض البلاد العربية على مذكرات وانطباعات شخصيات بعناوين تحاول جذب القارئ، بيد أنها تفتقر غالبًا إلى العمق في التحليل والنقد، فتصبح بمنزلة سرديات سطحية، مما يضر بالنظرة العامة إلى التأليف والكتاب عمومًا.

8. مسألة التقدير المتوجب لعمل التأليف وشخص المؤلف، فعادة ما تغتر مكافأة التأليف أو الترجمة على المؤلف أو المترجم، فينصرف الكثيرون ممن لهم القدرة على الإبداع في التأليف عن هذا العمل، خاصة أن البيئة الاجتماعية والاقتصادية تجعل من الصعب التفرغ له .

أمـا المسـتوجبات أو المحفـزات التـي أظنهـا تحفـظ للكتـاب العـربي جودتـه ودوره، وتحـول دون تعرضـه للانـكماش والتهميـش، فأجملهـا فـيما يلي:

1. ربـط الكتـاب العـربي بمسـألة اللغـة العربيـة كأداة تبليـغ ووسـيلة تواصـل، خاصـة أن الولـع باللغـات الأجنبيـة، والميـل إلى اللسـان الـدارج وتوسـعه في المجـالات السـمعية البصرية؛ يطـرح علينا اليوم بحـدة مسـألة تعاملنا مع اللغـة العربية التي تعرضـت للتهميش بفعل مـدّ الإنجليزيـة في بلاد المشرق والفرانكوفونيـة في بلاد المغـرب، وسـوف يكـون لذلـك آثار مدمـرة على الهوية في المـدى البعيد لا نقدر الآن حجمهـا وضررهـا.

2. تحفيـز عمليـة الترجمـة من اللغـات الأخـرى إلى اللغة الأم للشـعوب العربيـة (الفصحـى)، بحيث تواكب حركة الترجمـة كل جديد ومبتكر وجيّـد في مجـال الكتـاب، لأن نقـل المعرفـة عـن طريـق الترجمـة إلى العربيـة هـو السـبيل الوحيـد للاطلاع على عطـاء الثقافات الإنسـانية الأخـرى والاسـتفادة منها واكتسـاب المناعـة الفكرية.

3. العمـل في إطـار خطـة هدفها إيجـاد وسـائل كفيلة بالترويـج للكتاب العـربي، وجعلـه بضاعـة فكرية متداولـة بين الأقطـار العربية، بفضل رفـع الحواجـز وإلغـاء العراقيـل التـي تحـول دون انسـياب الكتـاب

العـربي سـفيرًا للمعرفـة في أرجـاء الوطـن العـربي، ومن ذلـك تنظيم معـارض الكتـاب بشـكل أكثـر كثافـة وتنشـيط المواسـم الثقافيـة والمناسـبات العلميـة.

4. اسـتحداث محفـزات لتفعيـل حركـة التأليـف والترجمـة مـن قبيـل الجوائـز والتكـريمات التـي تسـتقطب نشـاط الباحـثين والكتـاب والمؤلـفين والنقّـاد، ممـا يخلـق حركيـة ونشـاطًا في مراكـز وهيئـات البحـث والمؤسسـات الجامعيـة. ولعل مبـادرة مشروع جائزة الدوحة للكتـاب العـربي التـي تجمعنـا اليوم مثال حـيّ على أن رسـالة الكتاب العـربي هـي خدمـة الثقافـة العربية والتأسـيس لنهضة علميـة واعدة. ولا يفوتنـي في هـذا المقام التنويـه بالمبادرات الخيّرة التـي اعتدنا عليها في هـذا القطـر العـربي العزيـز في مراكـز البحـث والنـوادي الثقافيـة ومؤسسـات التعليم.

وفي ختـام كلمتـي، أذكـر بالمثـل القائـل "رحلـة الألـف ميـل تبـدأ بخطـوة"، فشـكرًا جـزيلًا لمـن دعانـا وكرّمنـا لنكـون شـهودًا على هـذه الخطـوة المباركـة التي حقّ لقطر ومسـؤوليها وأهلهـا أن يكونوا فخورين بهـا. ولا شـك أن الأجيـال القادمـة سـوف تذكـر هـذه الأيام المشـهودة التـي أسّسـت لجائـزة الدوحـة للكتـاب العـربي، في قطـر الخير والعطـاء وعـزة العروبة.

طه عبد الرحمن

مـن فاتـه أن يشـكر النـاس على مـا أحسـنوا فيـه، فقـد فاته أن يشـكر ربّ النـاس، وآبـى أن يفوتنـي هـذا أو ذاك؛ فما أجـدر بي، في هـذه الندوة المباركـة، أن أشـكر دولـة قطر الحكيمـة باختياراتها وقراراتها، إذ أنشـأت جائـزة الدوحـة للكتـاب العـربي إنشـاءها لكثير مـن عظيم المآثـر، وهي تقصـد أن تحفـظ كريـم القيم في الأمـة، وأن ترفع مكانتهـا بين الأمم، كما أشـكر مَـن أقامتهـم مسـؤولين أكْفـاء على هذه الجائـزة، تـدبيرًا وتنظيمًا، إذ إن بـواكير جهودهـم، تشـميرًا وتفانيًـا، ناطقة بحسـن تحمُّلهـم لأمانة هذا الحدث الثقافي البارز.

الفيلسوف ابن ساعته

إذا كنتُ، ولا أزال، أتحرَّج من التحدث عن سيرة حياتي، خشيةَ الوقوع في تزكية النفس، فلعلي لا أجد نفس الحرَج إن أنا تحدثت، في هذا المحفل المبارك، عن مسيرتي الفلسفية، تعريفًا بمسؤوليات الفيلسوف؛ فأقول، بمعونة الله، كان حالي ولا يزال، في كل طور من أطوار هذه المسيرة، أن تَملك عليَّ "أحداث الساعة الفاصلة في حياة الأمة" مداركي ومشاعري، فأبادر إلى البحث عن الجواب عن الأسئلة الكيانية والمصيرية التي تطرحها؛ وأجتهد، ما وسعني ذلك، في أن أستخرج، من جزئيات الحدث الفاصل، جملةً من المعاني الكلية، فأُنشئَ منها قضايا وأدلة، وأحيانًا، نظريات من شأنها أن تنتج إمكانات فكرية تفيد في استجلاء وحلّ الإشكالات التي يثيرها هذا الحدث الفاصل؛ ولم أزل على هذه الحال، حتى إن هذا الحدث لَينزل مني منزلة الثغر، وأَنزِل منه منزلة المرابط؛ ولم أزدد، مع مرِّ الأيام، إلا يقينًا بأنه لا فكر بحق بغير ثغر، فمن لا ثغر له لا فكر له؛ ألا إن "الخاصية الثغرية" و"الخاصية الفكرية" متلازمتان تلازم البدن والروح، بحيث يصح أن نقول: "إن الفكر إنما هو قوام الثغر، وإن الثغر إنما هو لباس الفكر"، أو نقول: "الفكر هو مخبر الثغر والثغر هو مظهر الفكر".

لقد آن الأوان، كما سيتضح بعد حين، أن نجعل من "الثغرية" مفهومًا إجرائيًّا نحدِّد به "صدق" ادعاءات الفيلسوف، بل أن نتخذ منها معيارًا حاكمًا يَبتّ في "قيمة" توجهاته.

وهكذا، فكما أنّ "الإعلامي ابن لحظته"، وأنّ "المؤرخ ابن حقبته"، وأن "السياسي ابن ظرفه"، وأن "الصوفي ابن وقته"، فكذلك "الفيلسوف هو ابن ساعته"، وتبقى لكلٍّ واحد منهم خصوصيتهُ الزمَنية واختياراتُه المنهجية؛ ولولا أني خشيت ألَّا أوفي بما طُلب مني، ألا وهو نظرة إجمالية عن كلية مساري الفلسفي، لكنت قد اكتفيت بالتفلسف في "الحدث الأعظم" الذي يميِّز الساعة التي تمّر على الأمة حاضرًا، والذي أسميه بـ"الشر المطلق".

ولا يسعني إلا أن أذكُر لكم بعض الثغور التي حدَّدت مسيرتي؛ فأول ثغر لزِمتُه هو "ثغر العقل"، فقد أحدثَت هزيمة 1967 هزة عظيمة في كياني لم يذهب عنى أثَرُها حتى رابطت اليوم في ثغر "الشر المطلق"؛ إذ شغلني آنذاك السؤال: "أي عقل هذا الذي هزم العرب جميعًا! فأخذت على نفسي أن أجتهد في بناء عقل عربي مبدع غير منسلب، ومتحرّر غير متسيّب؛ فاتخذ هذا البناء العقلي الذي استغرق زمنًا غير قصير صورتين:

إحداهما صورة منطقية، وهي بيان كيف أن الإبداع العقلي لا يُتوصَّل إليه إلا بامتلاك العُدّة المنطقية في أحدث تطوّر لها، ذلك أن العمليات العقلية المنتجة لـ"المعرفة"، على وجه الخصوص، كالتعريف والتدليل والتعليل والتنظير وغيرها، لا تُفحَص ولا تصحّ إلا بهذه العدة؛ ومتى فُحصت وصحّت، انفتح باب "الإبداع المعرفي" لمن يأتي بهذا الضرب من العمليات العقلية.

والصورة الثانية لهذا البناء صورة فلسفية، وهي بيان كيف أن التحرر العقلي لا يُتوصَّل إليه إلا بامتلاك القدرة الفكرية في أحدث تشكُّل لها، ذلك أن العمليات العقلية المنتجة لـ"الثقافة"، على وجه العموم، كالتواصل والتفاعل، والتخاطب والتحاور، والنقل والفهم، والعرض والنقد، والتفسير والتأويل، لا تُقوَّم ولا تستقيم إلا بهذه القدرة؛ ومتى قُوّمت واستقامت انفتح باب "الاستقلال الثقافي" لمن يأتي بهذا الضرب الثاني من العمليات العقلية.

وقد سمَّيت هذا المجهود المبذول في بناء فكر عربي مبدع ومتحرر "الفلسفة التداولية".

ثم كان ثغري الثاني هو ثغر التراث؛ فقد كانت "الساعة" يومئذ تضج بالهجوم على التراث العربي والإسلامي، طعْنًا في مختلف معارفه ومضامينه، وقدحًا في أعلامه ورجالاته، كل ذلك افتتانًا بالمنهجيات

المنقولة؛ فتعيَّن علي، بحكم معرفتي بهذه المنهجيات المغرية، أن أُنصف هذا التراث، كاشفًا أصول المنهجية التكاملية التي يختص بها، والتي يَبْرز فيها بديع الإنشاء ومتميِّز الإبداع.

ثم تلا هذا الثغر ثغر الحداثة؛ فقد كانت "الساعة"، يومئذ، تنادي بالتكبير للحداثة والانتصار المطلق لها، حتى كأن الإنسانية لم تعرف أبدًا العلم، ولا التقدم، ولا العدل، إلا مع أهلها المنسوبين إلى "التنوير" و"التثوير"، كل ذلك بثًّا لروح العجز واليأس في نفوس أبناء الأمة؛ فكان واجبي، وقد أحطتُ بأسباب الحداثة في عُقر ديارها، أن أكشف أضاليل هذا التهويل، وأُبرِز حقيقة الحداثة وحدودها؛ فميزتُ بين "صُوَر الحداثة" وبين "روح الحداثة"؛ أما صورها فتختلف باختلاف المجتمعات التي تدعي الانتساب إلى الحداثة؛ وأما روحها فتشترك فيها الحضارة الغربية مع غيرها من سالف الحضارات بما فيها "الحضارة الإسلامية"؛ كما بينت كيف يمكن لنا، نحن العربَ والمسلمين، استرجاع هذه الروح المفقودة، والانبعاث من جديد، واستئناف التقدم المطلوب.

أما الثغر الرابع، فهو ثغر الأخلاق؛ ولا أخفيكم أني كنت أرابط في هذا الثغر منذ الهزيمة المنكرة، إذ كنت أعتبر أن سبب هذه الهزيمة سببان أساسيان، وهما: "انسداد العقل" و"انقباض الأخلاق"؛ فبدأت

بإظهـار مرابطتـي في "ثغر العقـل"، وأبطنت مرابطتـي في "ثغر الأخلاق"، ولم أزَل أُبطنـه في مختلـف الثغور، حتى فرغت مـن أداء واجباتي في الثغور الثلاثـة المذكـورة، فأظهـرت، حينها، بقـوة مرابطتي في "ثغـر الأخلاق"، وجعلـت لهذه المرابطـة مرحلتين:

أولاهمـا، مرحلة كشـف الآفـات التـي أصابـت الأخلاق في الحداثة؛ والسـبب في هـذه الآفـات هـو، على التعـيين، فصـل الأخلاق عـن كل مجـالات الحيـاة مـن أجل نبذهـا؛ إذ فُصِلَت الأخلاق عن الفـن والثقافة؛ وفُصلـت عـن الفكـر والعلـم؛ وفُصلـت عـن السياسـة والقانـون؛ بـل فُصلـت عـن الإيمان والديـن، وهـو الـذي كان، في الأصـل، مهدَهـا ومُـمدَّها، كل ذلـك باسـم مبدأيـن متناقـضين: "إطلاق الحرية" و"حفظ الموضوعيـة"، فأصبـح الإنسـان الحداثـي كائنًـا معـزولًا عـن الأخلاق، بـل محجوبًـا عنهـا بـإطلاق؛ ولا نسـتغرب أن يُصـار حينـذاك إلى تشريع "الـمِثلية"، باعتبارهـا حقًّـا مطالَبًـا بـه في زمـن الحداثة.

المرحلـة الثانيـة، مرحلـة إعـادة بنـاء الأخلاق على أسـس إيمانية؛ هذه الأسـس ينبغـي أن تكـون قـادرة على علاج "الكسـور" التـي لحقت ذات الإنسـان الحديـث، حتـى تعـود هـذه الـذات إلى الانجبـار بعـد طـول انكسـار، بسـبب الـتمادي في الفصـل بين ميادين الحيـاة؛ لذلـك، أقمت هـذا البنـاء الأخلاقـي على مبـدأ أسـاسي قـد يسـمَّى "مبـدأ رجحـان

الإيمان"، وصيغته هي: "ينبغي أن يكون عنصر "الإيمان"، في تدبير المجتمع، بنفس القوة التي لعنصر "التقدم العلمي والتقني" أو بقوة أكبر، حتى يقدِر على دفع أخطاره".

من المعروف أن الفكر الحديث يُسلّم بأن المجتمع تأسَّس أصلًا على "مبدأ العقد"، مع العلم بأنه يَعتبر أن التعامل الأخلاقي ينحصر في نطاق تعامل أفراد المجتمع بعضهم مع بعض؛ وإذا كان الأمر كذلك فقد لزم أن يكون المقابل الإيماني لـ"مبدأ العقد" بمثل قوة هذا المبدأ، وإلا فبقوة أكبر، ونظفر بهذا المقابل في جميع الكتب المنزلة، ما وصل إلينا وما لم يصل، ألا هو "مبدأ الميثاق"! وبيّن أن "الميثاق" أقوى من "العقد"، لأن "العقد" عند المحدثين لا يعدو كونه استنساخًا عَلمانيًّا لـ"الميثاق"، والنسخ أدنى من الأصل.

لذلك اشتغلت بتأسيس الأخلاق على مبادئ الميثاق الإلهي، بدل مبادئ العقد البشري؛ ومن هذه المبادئ أن علاقة الإنسان بالعالم ليست، كما تقرر في الفكر الحديث، علاقة سيادة، وإنما هي علاقة أمانة، وأن الأمانة توجب تبعية الحقوق للواجبات، إذ الواجب مُقدَّم على الحق، كما توجب تبعية المسؤولية الجزئية للمسؤولية الكلية، إذ الكل مُقدَّم على الجزء، وتوجب تبعية الواقع للقيمة، إذ القيمة مقدَّمة على الواقع.

فاهتديت، بحمد الله، إلى إنشاء فلسفة أخلاقية تستبدل بـ"الفصل العلماني"، "الوصل الإيماني"؛ ولـمَّا كانت أصالة "الميثاق" أمرًا يقينيًّا، فلا بد أن ينزل "الوصل الإيماني" في قوة التدبير أعلى من رتبة "الفصل العلماني" لثبوت تبعية "العقد"؛ وسمَّيت هذه الفلسفة: "الفلسفة الائتمانية".

أما الثغر الخامس والأخير الذي أرابط فيه الآن هو "ثغر الشر المطلق"، علمًا أن "الشر المطلق" مسألة أخلاقية قصوى؛ لذلك، كان أول مفهوم تعاطيت التفكر فيه هو مفهوم "المرابطة" في حد ذاته، فلا أحوج إلى الرباط من هذا الثغر؛ ثم مضيت إلى التفكر في مسألة "الشر المطلق" في حد ذاتها، موجَّهًا بالأسئلة الآتية: كيف يظهر الشر المطلق؟ وما طبيعته الجوهرية؟ وما أسبابه الخفية؟ وما آثاره البعيدة؟ وكيف يمكن أن نتقيه بقوة؟

فقد كان هذا الشر موجودًا، لكنه لم يكن ظاهرًا بكليته، أما الآن وقد قَدَر المقاوم، في أرضنا المقدَّسة، على ما لم يكن يقدِر عليه من قبل، وهزم هازمه، ومَحق كبرياءه، فقد ظهر هذا الشر في صورة أعمال مؤذية إيذاء يختص بصفتين أساسيتين: إحداهما، أنه يتحدى العقلَ، إذ لا يقدِر "العقل" على تصوُّره، فضلًا عن تصديقه، كما يتحدى الإرادةَ، إذ لا تقدِر "الإرادة" على قصْده، فضلًا عن تخيُّره؛ والصفة الثانية، أنه

إيـذاء لا ينفَـد ولا ينحـدّ؛ فلـو قلَّبنا هذه الأعمال المؤذيـة على أي وجه من الوجـوه الممكنـة، فلا نجد فيـه ذرة خير، بل بقدر مـا نواصل تقليب هذه الوجـوه، يشـتد، في أعيننـا، ظهـور الأذى فيها، حتى كأن هـذا الإيذاء لا نهاية يقـف عندها.

ومـا هـذا الإيـذاء اللامعقـول واللامحـدود إلا من أجـل الوصول إلى غـرضين غايـة في المنكـر؛ أحدهما، تعطيـل المواثقة، إذ المواثقـة تكون بين الإنسـان وأخيه الإنسـان كما تكون بين الإنسـان وخالقه؛ والثاني، تخريب الفطـرة، إذ الفطـرة هـي مسـتودع القيـم في باطـن الإنسـان؛ وبذهـاب "المواثقـة" و"الفطـرة"، لا تبقى ثمة "إنسـانية"؛ وهكذا، فـإن "الشر المطلق" ليـس مجـرد تأزيـم للأخلاق، ولا حتى قلْبـا لها إلى أضدادها، وإنما هو محو للأخلاق بالكليـة، بحيـث يفقد الإنسـان القـدرة على تمييز الخير من الشر والحق مـن الباطل.

لذلـك، وجـب التصـدّي لهـذا الشر وجـوب عين كما لم يجب شيء من قبـل، إذ يسـتلزم مـن المسـؤوليات، كمًّا وكيفًـا، ما لا يسـتلزمه غيره؛ ولا يمكـن أن يُسـتغنى، في تحديـد هـذه المسـؤوليات الثقيلـة، بالعقل وحده، بـل لا مفـر مـن أن يسـتعين العقـل بالوحـي، مبرهنًـا، بهـذه الاسـتعانة، على صدقـه؛ ذلـك لأن قتـل النفـس بـغير حـق هـو بمنزلـة قتـل النـاس جميعًـا، وهـدْمَ القيمـة الواحـدة بـغير موجـب هـو بمنزلـة هـدْم القيـم جميعًـا؛ وهـذه المماثلـة الروحيـة بين "الواحد" و"الـكل" بخصوص النفس

والقيمة، لم يتوصّل إليها العقل المجرد، وأنىَّ له ذلك! لأن "الكل" متعدد، و"الواحد" لا تعدد فيه، والجمعُ بينهما، في نطاق هذا العقل، أمر محال، وإنما الوحي هو الذي أخبرنا بهذه المماثلة العجيبة، ودلّنا على أسبابها، وحثَّنا على طلب هذه الأسباب؛ فهاهنا إذن مسؤوليتان عظيمتان: "المسؤولية عن الإنسانية جمعاء" و"المسؤولية عن القيم جمعاء".

وليس إلا أمر واحد سبيلًا إلى بقاء العالم، وإلا فمصيره الفناء المحتوم، وهو، بالذات، أن يأخذ الإنسان هاتين المسؤوليتين العظيمتين بقوة؛ فلما كان الأشرار الإطلاقيين، يراكمون، بغير انقطاع، قدراتهم العلمية والتقنية المجرَّدة من القيم، فلا مأمن من انطلاق شرّهم المستطير في أي لحظة، لا ليفتك بأمة مستضعفة هنا أو هناك بغير حسيب ولا رقيب، وإنما ليجرّب مطلق شره، حتى لو كان ذلك بمحو العالم كله.

فهل، بعد هذا، من ثغر أكبر خطرًا وأكثر فِكَرًا من هذا الثغر! والفيلسوف، وهو يدّعي، أصلًا، اقتحام الأخطار واقتناص الأفكار، إن لم يرابط بهذا الثغر، تفكيرًا وتنظيرًا وتبصيرًا، متصدّيًا لشر مستطير لم تشهده الإنسانية من قبْل، فلا جدوى من وراء ادعاءاته، إذ يكون قد ضيّع أيما تضييع ما يستحق أن يكون به، في هذه الساعة، فيلسوفًا بحق.

جيرار جهامي

أتقـدّم بالشـكر والعرفـان لجائـزة الدوحـة للكتـاب العـربي، التـي اسـتضافتنا وأحاطتنـا بمظاهـر الحفاوة والاهـتمام في الدورة التأسيسـيّة، برعايـة موقّـرة مـن صاحب السـموّ الأمير الوالد الشـيخ حمد بـن خليفة آل ثـاني حَفِظَـهُ الله. ولا بـدّ مـن التنويـه بما تقومـون بـه من مجهـودٍ ثقافيّ لإبراز دور الكتاب الورقيّ غير المُسـتبدَل بالكتاب الرقميّ، وتشـجيعكم التأليـفَ النوعـيّ والحـضّ على الجِـدّة والأصالـة المعرفيّة.

بَـدَأْتُ مـسيرتي الفكريّـة يـوم وَضَـعَ العلّامـة فريـد جبر، أسـتاذي ومرشـدي، بين يـدَيّ مخطوطـةَ **تلخيـص منطـق أرسـطو لابـن رشـد** (Middle Commentray) لأُحَقِّقَها وأدرس مدى إسـهام فيلسـوف قُرْطُبَة في تطويـر المنطـق الأرسـطيّ. فكوَّنَـتْ أطروحتـي ومجالَ تخـصُّصي، وقد أخَـذَ منّـي العمـلُ سِـتَّ سَـنوات. لماذا ابن رشـد؟ لأنّه فيلسـوف العبور

مـن ضفّـة الفكـر العـربيّ بامتداداتـه اليونانيّـة والعربيّـة إلى ضفّـة الفكـر الغـربيّ، حيـث تُرجمـت مؤلّفاتـه إلى اللاتينيّـة وانتشرت وشـاعت من ثَمَّ في أنحـاء أوروبـا. وقد عُرف بالشـارح الأكبر لأرسـطو مـن خلال تيّاره الفكـريّ الـذي سُـمِّيَ بالرشـديّة التـي عمّت الأوسـاط اللاتينيّـة. وبَرَزَ مـن هـؤلاء ألبرت الكـبير (1200–1280م) الـذي نقل تعاليمـه إلى تلميذه توما الأكويني (1226–1274م) وقد طوّر ابن رشـد المنطق الأرسـطيّ عبر شرّاح المعلّـم الأوّل اليونانـيين والعرب. فركّز على دور اللسـان العربيّ في تركيـب القضايـا والقياسـات والبراهين، ولاسـيّما منحى المنطـق العمليّ والوضعيّ.

انتقلـت في العـام 1978 للتعليـم الجامعـيّ في الجامعـة اللبنانيّـة كلّيّـة الآداب، ومعهـد الآداب الشرقيّـة للآبـاء اليسـوعيّين، وأشرفـت على رسـائل الماجسـتير والدكتـوراه فيـها. وفي العـام 1996 عُيِّنـتُ عضـوًا مشـاركًا في المجمـع العلمـيّ الاسـتشراقيّ (Thomas Institute) في مدينة كـون (Köln) الألمانيّـة، والذي يهتـمّ بنشر مخطوطات ابن رشـد. وأَتْبَعْتُ أطروحتـي تلـك بتحقيـق **منطـق ابن زُرعـة**، وإعـادة تحقيق **رسـائل ابن رشـد الفلسـفيّة** السِّـتّ مـع الدكتـور رفيـق العجـم رحمه الله.

وقبـل ولـوج عـالم الموسـوعات وضعـتُ كتـابين: الأوّل بعنـوان **ابن سـينا في حضـوره الفكـريّ بعـد ألـف سـنة** (مـن ولادتـه)، والثـاني:

الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة الذي يُعَدُّ تمهيدًا للعمل على المصطلح الموسوعيّ. فدَرَسْتُ واقع اللغة الفلسفيّة العربيّة التي وُلِدَت من رَحِم اللّسان العربيّ وجذور أفعاله وأسمائه، والذي كان من أبرز روّادها الكندي الفيلسوف في **رسائله الفلسفيّة**، وأبو نصر الفارابي في **كتاب الحروف**. وحَلَّلْتُ طروحات الفلاسفة اللغويّة في مثل **كتاب الحدود** لابن سينا، **وكتاب التعريفات** لابن عربيّ والجرجانيّ.

وجُلّ المبتغى من دراساتنا اللغويّة في مجالات الفكر الفلسفيّ، دَفْع أهل الفلسفة إلى تطوير بُناها، واستغلال قدراتها المتعاظمة، من أجل تقعيد منهجيّات لسانيّة توظَّف في حقول معظم العلوم الإنسانيّة ولاسيّما الفلسفيّة منها. فلا نستسلم للتغرُّب والنقل اللفظيّ، إنّما نُعبِّد طريق النحت والاشتقاق من اللّسان العربيّ مع الاستفادة من سائر اللّغات بالطبع في عمليّة قَوْلَبة اللفظ الفلسفيّ وإبداعه.

أطلق فريد جبر مشروعَ بناء سلسلة موسوعات مصطلحات الفكر العربيّ والإسلاميّ وهندستَها، بُغية أن يضع بين يَدَي المفكّر العربيّ وسيلَة بحثٍ أساسيّة عن المعاني الفلسفيّة المُستَخلَصَة من منابعها الأصليّة وفي نصوصها الأصيلة (كتابًا وصفحةً وسطرًا)، إلى أن جرى العمل على تقميشها وجمعها وتحقيقها ودراستها مع الزميلين رفيق العجم وسميح دغيم رحمهما الله، في ثلاثينَ موسوعة، وقد فاقت

مصادُرها الثلاثة آلاف مصدرٍ، شاملةً نصوصَ الفلاسفة والمتكلّمين والفقهاء والعلماء من بدايات القرن السابع ميلادي إلى القرن العشرين. ومن المجموعة نذكر: **موسوعة علم المنطق، أصول الفقه، علم الكلام، الفلسفة العربيّة، العلوم عند العرب، عصر النهضة** (في ثلاثة أجزاء)، **مصطلحات الفكر النقديّ** (في جزأين). فأنت إذا أَرَدْتَ مثلًا دراسة مصطلح العقل أو الجوهر وغيرهما، ستجد نفسك أمام كمّ هائل من التعريفات الموثَّقة في كل موسوعة ممّا يُغنيك عن مراجعة مصادرها. وقد صُدِّرَت كلّ موسوعة بمقدّمة تحليليّة واخْتُتِمَت بفهرس لأبرز المصطلحات في اللّغات الثلاث العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة. وأهمّ ما في هذه السِّلسِلة أنّها اختُتِمَت بموسوعة توليفية من جزأين بعنوان: **الموسوعة الجامعة لمصطلحات الفكر العربيّ والإسلاميّ**، التي أُرْفِقَت بتحليلٍ ونقدٍ لأبرز المصطلحات فيها والمُنْتقاة من معظم الموسوعات والموادّ. وأضفنا إلى المجموعة موسوعةً رائدةً في العلوم النحويّة بثلاثة أجزاء مع الزميلَيْن البروفسور أهيف سنّو والدكتورة هبة شبارو سنّو. فعِلْم النحو يُعْنى بهيئة الألفاظ وتراكيبها تأديةً للمعنى، وفقًا لمبادئ وقواعد ومقدّمات ثابتة. وهو ضرورة علميّة لما له من علاقة بأصول الفقه وعلم المنطق وغيرهما من العلوم الدينيّة والفكريّة. وقد طَبَعَتْ

ونَشَرَتْ مكتبة لبنان ناشرون مشكورةً السلسلة على مدى عشرين سَنَةً.

كان لا بدّ لي من استثمار هذا العمل الموسوعيّ في **معجم مصطلحات الفكر العربيّ والإسلاميّ**، مع شريكة حياتي الدكتورة عايدة، وبثلاث لغات: العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة. وهو يجمع الموادّ الفلسفيّة وغيرها في أبرز مصطلحاتها تلخيصًا لما وَرَدَ في الموسوعات، ويُساعد النَّقَلَة والمترجمين من خلال التعريفات الأساسيّة، على استعمال المفردات الفلسفيّة والعلوم الإسلاميّة. ومن ثمّ وضعتُ مُؤلَّفَيْن:

الأوّل: **معرفيّات ومسلكيّات: الفلسفة في خدمة الإنسان**. حيث قُمْتُ بطرح مشروع فكريّ جديد أبغي منه تحويل مسار المعرفيّات الفلسفيّة من الخاصّة إلى دوائر العامّة. فهناك فلسفة عالِمَة وأخرى عامِلَة. وأرى أنّ الفكر من دون ممارسة هَباء، والممارسة بدون فكرٍ عَماء.

والثاني: **من مَسالك التراث إلى مَعابر النهضة: الفلسفة في سبيل المعرفيّات**. عَرَضْتُ فيه مباحث في القول الفلسفيّ ومصطلحاته العربيّة، بين ماضيها وحاضرها، بين التراثيّات والحَداثيّات، وصولًا إلى النقديّات.

دامت مسيرتي هذه خمسين عامًا وما زالت مستمرّةً. وعند سؤالي اليوم: ماذا تستخلِصُ من أعمالك هذه؟ أُجيبُ بدايةً إنّ دور تكم التأسيسيّة المخصّصة لعطاءاتنا تقديرًا وجزاءً، والتي شكّلت مؤلّفاتُنا فيها مَعينًا معرفيًّا للإنسانيّة، كما تذكرون، بالطبع مع الزملاء الدكاترة، لِهَيَ أفضلُ وسامٍ يُعَلَّقُ على صَدْرنا. وأرى بعدها أنّني أسْهَمْتُ قدْرَ المُستطاع في تظهير مكانة الفلسفة العربيّة والإسلاميّة في حياة الإنسان العربيّ، وإن بَقَيَتْ وتبقى الفلسفة عمومًا رهينةَ الخاصّة ودوائر المُثقَّفين. وأبرزتُ دورَ المصطلح الفلسفيّ في بلورة هذه الفلسفة من التراثيّات إلى النهضويّات، من التقليد إلى التحديث، ومدى انخراط التعبير الفلسفيّ بالعربيّة في ميادين العلوم الإنسانيّة. ونحن نواجهُ اليوم تعريفًا جديدًا للفلسفة طالعنا به جيل دولوز (Gilles Deleuze) بقوله ما مفادُه إنّ مهمّة الفلسفة لا هي بتفكيرٍ ولا بتأمّلٍ فحَسْب، بل مهمتُها الأساسيّة تكمن في توليدها وإبداعها للمفاهيم. وقد جَسَّدَ العلّامة فريد جَبْر هذا المنحى الإبداعيّ للّفظ الفلسفيّ في مؤلّفاته ومقالاته. ويُجَسِّده منذ سنوات طِوال العلّامة طه عبد الرحمن في معظم كتاباته الفكريّة والدينيّة. ممّا يجعلنا نَغْرِفُ من لغتنا العربيّة جذورًا وأصولًا كي نَفِيَ أعمالَ النقل والترجمة والتأليف حقَّها ودَيْدَنَها بتوليد مصطلحاتنا وتكييفها مع واقع الفكر والحياة، وتطوّر العلوم

المطَّـرد. فلـكلّ لغـة طريقـة خاصّـة ومميَّزة في عَـرْض معالم الكـون وحياة الإنسـان وفكـره وتفسيرهـا، وإعادة تركيبهـا بعد تفكيكها. وهـذا ما ميَّز اللّسـان العـربيّ عـن ذاك اليونـانيّ واللاتينـيّ وحاليًا الغـربيّ إجمالًا. ومن هـذه اللُّغـة الفذّة تنبثـق فلسـفتنا الذاتيّة.

وأَخْتُـم بنصيحـةٍ أخويّـة أُوَجِّهُهـا لليافـعين الذيـن يبنون مسـتقبَلهم الفكـريّ بتخصّصهـم في مجـالات الفلسـفة الواسـعة بقـولٍ مأثـور:

(Publish or Perish to Succeed in an Academic Career)، وهـذا يعنـي أنّ الكتابـة والـنشر والإبداع ثلاثيّةٌ تشـكِّلُ طريـقَ النجاح في الحياة الأكاديميّة.

أيمن فؤاد سيِّد

الحَـمْدُ لله رب العـالمين، والـصّلَاة والـسَّلَام على سَـيِّدِنَا محمَّـد وآلِـه الطَّيِّـبِين وصحابتـه الأكـرمين. إنَّـه لشَرَفٌ كـبيرٌ لي أن أحظـى بتكريـم جائـزة الدَّوْحَـة للكتـاب العـربي في دورتها التأسيسـية، والشُّـكْر الجزيل للقائـمين عليهـا على تشريفـي بهـذا التكريـم.

كانـت نشـأتي في بَيْـتِ عِلْـم، فقـد كان والـدي -رحمـه الله- أوَّلَ أمين لمخطوطـات دار الكتـب المصريـة، بعـد فَصْـلِ المخطوطـات عـن المطبوعـات بالـدَّار، ويمتلـك مكتبـةً تراثيـة ضخمـة. وكان كـثيرًا مـا يصحبنـي معـه إلى الـدَّار في الإجـازات الدراسـية، فكنـت أتجـول بين أرْفُـف الكُتُـب وأتصفَّحهـا، كما التقيـت في مكتبـه بقسـم المخطوطـات بعـددٍ من أعلام الأُدَبَاء والمُـفَكِّرين: شـوقي ضيف وعبـد الرحمن بدوي ومحمَّـد أبـو الفضـل إبراهيـم وحَمَـد الجَاسِر وغيرهـم كـثير.

وكان والـدي -رحمـه الله- يُشْرِكُنِـي معـه في منزلنـا في مقابلـة تجارب الطَّبْـع للكُتُـب وفهـارس المخطوطات التـي كان يخرجهـا. فتدرَّبت على قـراءة الخُـطوط (حيـث كنت أُقَابِـل على النُّسْـخ الخَـطِّيَّة)، كما تعلَّمت فوائـد كـثيرة في البحـث عـن التراجـم والمصطلحـات والمسـائل اللُّغَوِيَّة مـن خلال المصـادر والمظـان المختلفة.

كانـت هـذه المرحلـة فاصلة في تكويني، إضافة إلى مَجَالِـس العِلْم التي كان يعقدهـا في منزلنـا ويتردد عليهـا عـدد مـن كبـار الأدبـاء والمثقـفين، إضافـة إلى طلبـة الدراسـات العليـا مـن العـرب والمسـتشرقين الذيـن نشـأت بينـي وبينهـم صداقـةٌ اسـتمرت فـيما بعـد وفاته رحمـه الله.

كُلُّ ذلـك جعلنـي أُكَـوِّن رصيـدًا مـن المعرفـة عـن مختلـف المصـادر والكتـب ومناهـج العـلماء فيها. وعنـد التحاقي بكليـة الآداب - جامعة القاهـرة كنـت أشـعر بتفوقـي في هـذا المجـال على أقـراني وزملائـي عند مناقشـة الأسـاتذة لنـا، وكان أغلبهـم قـد تعرَّفـت عليـه مـن قبـل عـن طريـق والدي.

وبعـد وفـاة والـدي -رحمـه الله- بـدأت بالاتصـال بمجلـس أديـب العربيـة الكـبير محمـود محمَّـد شـاكر، الـذي اسـتمرَّت علاقتي بـه قرابة ثلاثين عامًـا، تعرَّفـت خلالها إلى نخبـة مـن العـلماء العـرب والمصريين،

وكان -رحمه الله- يناقشني في بعض كتاباتي التي كنت أنشرها أوَّلًا في مجلة **العرب**، ثم دراسات أخرى، ودلَّني على مواضع أخرى للبحث.

وفي السنة الأخيرة بالجامعة وجدت في أوراق والدي -رحمه الله- بطاقات سجَّل فيها مصادر تاريخ اليمن المخطوطة المحفوظة في دار الكتب المصرية؛ فأخذت في جمعها وترتيبها، وكنت خلال ذلك قد انتهيت من قراءة الجزء الأوَّل من كتاب **تاريخ التراث العربي** لفؤاد سزكين، الذي كان يتردَّد كذلك على والدي -سواء في الدَّار أو في المنزل- فدلَّني على ضرورة أن يمتد العمل ليشمل مصادر تاريخ اليمن في مكتبات العالم.

انتهيت من هذا العمل بعد تخرُّجي من الجامعة بعام، وكنت متفرغًا تمامًا له، فجعلني أتعرَّف إلى مصادر تاريخ اليمن وجغرافيته، وأدَّى إلى توطيد علاقتي بأصدقاء والدي اليمنيين، مثل القاضي إسماعيل الأكْوَع وشقيقه القاضي محمَّد والسَّيِّد علي المُؤَيَّد والسَّيِّد محمَّد بن محمَّد المَنْصُور والقاضي أحمد الهيصمي وغيرهم، فأمدُّوني بمعلومات إضافية عن نُسَخٍ في مكتبات عامَّة وخاصَّة محفوظة في اليمن.

وعندما بحثت عن ناشر لهذا العمل أشار عَلَيَّ بعض أصدقاء الوالد أن أتَّصِلَ بالمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة (IFAO) الذي سبق أن نشر لوالدي تحقيقه المتميِّز لكتاب **طَبَقَات الأطِبَّاء**

والحُـكَماء لابـن جُلْجُـل الأنـدلسي. وعندمـا عرضـت على المختـصين بالدراسـات العربيـة فيـه موضـوع كتـابي وهـم: جـان كلـود جارسـان (Jean– Claude Garcin) وتيـاري بيانكـي (Thierry Bianquis) رَحَّبُـوا به وطلبـوا إدخـال بعـض التعـديلات وملاحظـات في المنهج أفَـدْتُ منها. ولما وجـدوا معرفتـي الجيِّـدة بالمصـادر والمراجـع طلبوا إلَيَّ أن أسـاعد في تنظيـم القسـم العربي مـن مكتبة المعهـد الغَنِيَّـة، وكان ذلك مـدخلًا مهمًا لي للاتصـال بالمسـتشرقين الذيـن كانوا يتردَّدون على المعهد، وأن أسـتفيد مـن مكتبتـه المتخصِّصـة الغنيـة، وعلى الأخَـصّ في الكتـب والدَّوْرِيَّـات الأجنبيـة، وصـدر أوَّلُ كتبـي **مَصَـادِر تَارِيـخ اليَمَن في الـعصر الإسْلَامِي** عـن المعهد سـنة 1974. وبناءً على ذلك كان موضوع رسـالتي للماجسـتير عـن **المَـذَاهِب الدِّينِيَّـة في بلاد اليَمَن حتَّى نهاية القرن السَّـادِس الهجري.**

ولأن المسـتشرق تيـاري بيانكـي كان يهتم بالدراسـات الفاطمية، فقد طلـب إلَيَّ أن نتعـاون معًـا في إخـراج نشرة نقديـة لأهـم مصـدر يـؤرِّخ للخمـسين عامًـا الأولى مـن تاريـخ الفاطِمـيين في مصر **أخْبَـار مِصْـر** للمُسَـبِّحِي، وصـدر الكتـاب عـن المعهـد سـنة 1977.

كان كل ذلـك مـدخلًا لي للالتحـاق عـن طريقهـم للدراسـة في جامعـة باريـس، ووفَّـروا لي مِنْحَـةً لتسـجيل درجـة دكتـوراه الدولـة في الآدَاب والعلـوم الإنسـانية، حيـث كنـت مـن أواخـر الحاصـلين عليهـا

لأن التسجيل بها توقَّف سنة 1984. وكان موضوع الرسالة **عاصمة مصر حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة والفسطاط: دراسة في إعادة تخطيطها**. ونتيجة للسمينارات العلمية التي كنت أحضرها في جامعة باريس ومناقشاتي مع أساتذتي هناك، وعلى الأخَصّ المستشرق الكبير كلود كاهن (Claude Cahen)، اكْتَسَبْتُ الكثير من منهجية الفرنسيين في البحث، أفدت منها بعد ذلك في مؤلَّفاتي المختلفة: **الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد، والكتابة التاريخية عند المؤرِّخين المسلمين، ودولة سلاطين المماليك في مصر**. ومن بين هذه المنهجية التي أفدت منها كثيرًا: منهج "نقد المصادر واستعراض الوضع الراهن لدراسة الموضوع المتناول".

جاء تحوُّلي عن دراسة تاريخ اليمن إلى دراسة تاريخ مصر الإسلامية نتيجة لتعاوني مع أعضاء المعهد العلمي الفرنسي. لذلك كان من أهم الكتب التي أصدرتها بعد عودتي من البعثة: ترجمة القسم الخاص بالقَاهِرَة وقَلْعَة الجَبَل من كتاب علماء الحملة الفرنسية **وصف مصر**.

وعندما استعانت بي وزارة الثَّقَافَة لإدارة مشروع تطوير دار الكتب المصرية أَلَّفْتُ كتابًا عن **دَار الكُتُب المِصْرِيَّة: تَارِيخُها وتَطَوُّرُهَا**، كان الأساس الذي اعْتُمِدَ عليه في مشروع التطوير.

كما أدَّت مشاركتي في العديد من المؤتمرات المتخصِّصة في أوروبا إلى اهتمامي بعلم جديد، هو "عِلْم الكُودِيكُولُوجْيَا" الذي يعرف عندنا بـ"عِلْم المَخْطُوطَات"، وألَّفْتُ فيه أوَّلَ كتابٍ بالعربية: **الكِتَاب العَرَبِي المَخْطُوط وعِلْم المَخْطُوطَات**، صدر سنة 1997.

مع مطلع القرن الحادي والعشرين توطَّدت صلتي بمؤسَّسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، وكانت قد نشرت لي سنة 1995 مُسَوَّدَة كتاب **المَوَاعِظ والاعْتِبَار في ذِكْرِ الخطَط والآثَار** للمَقْرِيزِي، وكلَّفتني بإخراج نشرة نقدية لكامل الكتاب. وأعتبر تجربتي في إخراج هذا الكتاب والبحث عن نُسَخِه واختيار النسخ المعتمدة المنقولة من خَطِّ المؤلِّف Apographe، أو التي اكتشفتها بعد صدور الطبعة الأولى بخَطِّ المؤلَّف Holographe والتي اعتمدت عليها في الطبعة الثانية، وتَتَبُّع مصادر المؤلِّف والتَّعْلِيق على كل تفصيلاته ذات الطابع التَّارِيخِي والأثري من أهم إنجازاتي التي لاقت استقبالًا حافلًا من الباحثين العرب والمستشرقين.

وكانت تجربتي بعد ذلك مع كِتَابِ **الفِهْرِسْت** للنَّدِيم، وهو أهم مصدر يُصَنِّف الإنتاج الفكري العربي في القرون الأربعة الأولى للإسلام، بنفس المنهج، وإن اختلف موضوع الكتاب الذي اهتم بذكر المُصَنِّفِين وعناوين كتبهم.

ونتيجة لنشري كتاب **المَوَاعِظ والاعْتِبَار** للمَقْرِيزِي وغيره من مصادر تاريخ مصر، كتبت دراسةً كبيرةً عن **القاهرة: خططها وتطوُّرها العمراني**، أفَدْتُ فيها كذلك إضافةً إلى المصادر العربية من رُؤْيَة الرَّحَّالَة الأجانب ودراسات المستشرقين الذين كتبوا عن القاهرة ودرسوا تاريخها.

وعليه فإني أظُنُّ أنِّي قُمْتُ بإسهام مهم في مجال النَّشْر النَّقْدِي للنُّصُوص ومجال فَهْرَسَة المَخْطُوطَات ومجال دراسة التَّارِيخ الإسْلَامِي -وعلى الأخَصّ تاريخ مصر الإسلامية وتاريخ اليمن في العصر الإسلامي- إضافةً إلى دراسة عِلْم المَخْطُوطَات أو الكوديكولوجيا والعُمْرَان المَدَنِي لمَدِينَة القَاهِرَة وتَطَوُّر خططها.

وجاء كل ذلك بتوفيق من الله عَزَّ وجَلّ، وآمُل أن أوفَّق، إن شاء الله، لاستكمال هذه الدراسات والنشرات النَّقْدِيَّة. والشكر واجب لجائزة الدَّوْحَة للكتاب العربي على اختياري لهذا التكريم.

مصطفى عقيل الخطيب

الحمـد لله رب العـالمين، والصلاة والسلام على رسـولنا الكريم، محمد بـن عبـد الله وعلى آلـه وصحبـه أجمـعين. وبعـد، فـإني أشـكر القائـمين والعامـلين على جائـزة الدوحـة للكتـاب العـربي جزيـل الشـكر، ولي الشرف أن أكـون بين هـذه الكوكبـة مـن العلماء والمفكريـن في مجال العلم والفكر.

في الحقيقـة، طلبـت منـي إدارة الجائـزة أن أتنـاول في هـذه العُجالـة التحـدث عـن تجربتـي، أو الـسيرة الذاتيـة مـن حيـاتي، ويصعُـب على الإنسـان أن يتحـدث عـن نفسـه، ولكنّـي وُضِعـت في هـذا الموقف، فلا بـد أن أسرد بعـض الأمـور اليـسيرة والمتواضعـة.

تبـدأ رحلتنـا مـن أواخـر الأربعينيات مـن القـرن الماضي، وبالتحديد في عـام 1949م، وهـو العـام الذي ولـدتُ فيه.

كانت مدينة الدوحة محدودة من حيث عدد السكان والعمران، وكذلك الأحوال الاقتصادية، ولم تكن هناك فروق كبيرة بين طبقات المجتمع في ذلك الوقت. فالأحياء متقاربة، والعلاقات الاجتماعية بين الحي كانت من أبرز ما تميزت بها تلك الفترة. فقد كانت أبواب البيوت مفتوحة، والزيارات بين الأهل والأصدقاء كانت سهلة ويسيرة، ولم تكن بحاجةٍ إلى المواعيد والعُقد كما توجد في زماننا هذا.

وعلى العموم، الحياة الاجتماعية قي القرن الماضي بحاجة إلى المزيد من الدراسة والاستقراء، لاسيما في الفترة ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث مرّت على قطر وبقية مناطق الخليج العربي خاصة والشرق الأوسط عامة، الكثير من المشاكل الاقتصادية من القحط والجوع بسبب الحربين العالميتين المدمّرتين، ولم يعد المحيط الهندي ممرًّا آمنًا للإبحار، لاسيما أن منطقة الخليج العربي كانت تعتمد بصفة خاصة اعتمادًا كليًّا في المواد التموينية والاستهلاكية على شبه القارة الهندية، إضافةً إلى أسبابٍ أخرى، منها: هجر البحّارة عن مهنة الغوص لكساد تجارة اللؤلؤ (بعد صناعة اللؤلؤ الصناعي)، وكذلك العمل في الاكتشافات النفطية منذ أوائل القرن العشرين 1904م.

أما عن تجربتي الشخصية، فأنا أنتمي إلى بيت علم، فكان والدي -رحمه الله- عالمًا وإمامًا وخطيبًا لأحد أقدم مساجد قطر، وهو مسجد

البوقبيب، وسُمّي بهذا الاسم لأنه كان مبنيًّا على الطراز العثماني، وكان المسجد يقع على شاطئ الخليج من جهة، ومنطقة سوق واقف والأسواق الحِرفيّة من جهة أخرى.

في أوائل الستينيات من القرن الماضي، انتقل الوالد إلى "فريج نجمة" (حي نجمة) خطيبًا لمسجد (جابر الوالدة). وقد ترك لنا مكتبةً كبيرةً تحتوي على العديد من المصادر والمراجع في الفقه والتفسير والحديث، وأيضًا الأدب والشعر، باللغتين العربية والفارسية.

بدأ تكويني العلمي من مجلس والدي رحمه الله، والذي كان يجتمع فيه الكثير من علماء الأزهر وأساتذة الشريعة في المعهد الديني وبعض مدارس قطر، وكانت تُدار مناقشات ومجادلات حادة أحيانًا بين السودانيين والمصريين في المسائل الفقهية والشرعية، وهذا مما دفعني للالتحاق بالمعهد الديني الثانوي، والذي تخرّجت فيه عام 1969–1970م، فالتحقت بمهنة التدريس في وزارة التربية والتعليم.

لقد كانت الدراسات بالنسبة لي مطلبًا أساسيًّا، لاسيما أن عددًا من الزملاء والأصدقاء التحقوا بالجامعات، وواجهتني مشكلة أن وزارة التربية والتعليم تبعث خرّيج المعهد الديني إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة أو إحدى الجامعات الأخرى في المملكة العربية السعودية، ولكني كنت أرغب في مواصلة الدراسة في جمهورية

مصر العربيـة، فسـافرت في إجـازتي السـنوية إلى القاهـرة، وقـد كتـب لي المرحـوم فضيلة الشـيخ عبـد الله الأنصاري خطاب توصية إلى الشـيخين الجليـلين: عبـد الحليم محمود (شـيخ الأزهر)، والشـيح محمـد الغزالي في وزارة الأوقـاف المصريـة.

لقـد كان اسـتقبال الشـيخين لي دافعًـا كـبيرًا لموصلـة الدراسـة في الأزهـر الشريـف، لما لقيـتُ منـهما مـن تشـجيع وتسـهيل أمـور القبـول بالجامعـة، إضافـة إلى أن عـددًا من الأسـاتذة الذين تتلمـذتُ على أيديهم في المعهـد الدينـي الثانـوي، فقُبِلـتُ (كما أرغـب) في كليـة اللغـة العربيـة –قسـم التاريـخ والحضـارة، وأنهيـتُ دراسـة البكالوريـوس في 1976م، ثـم عـدت إلى وزارة التعليـم في قطـر وعُيّنـتُ مديـرًا لمدرسـة علي بن أبي طالـب الإعداديـة، ثـم عُيّنتُ معيـدًا بقسـم التاريخ بكلية التربية –قسـم التاريـخ، قبـل أن تتحـول إلى جامعـة قطـر، وكنـتُ مـع بعـض الإخـوة والأخـوات في الدفعـة الثانيـة مـن المعيديـن القطـريين.

وقـد خُيّرت بين مواصلـة الدراسـات العليا في أوروبـا أو دولة عربية، فـاخترتُ جمهوريـة مصر العربية، والتحقت بجامعة عين شـمس –قسـم التاريخ.

إن منطقـة الخليـج العـربي كانـت من المناطق المنسـيّة في ذلـك الوقت، ولم تكـن هنـاك إلا القليل من الدراسـات التاريخية حـولها، فقابلتُ عددًا

مـن الأسـاتذة المتخصصين، منهم: الأسـتاذ الدكتـور صلاح العقاد رحمه الله، وهـو كان مـن أحد المتخصـصين القلائل الذين كتبـوا تاريخ الخليج العـربي، وقابلـتُ أيضًا الأسـتاذ الدكتور: جمـال زكريا قاسـم -من نفس الجامعـة، كليـة الآداب قسـم التاريـخ. وللأسـتاذين الجليـلين الفضـل الكـبير في الالتفـات إلى تاريـخ الخليـج العـربي، ولا يـزال إنتاجـهما مـن المصـادر الرئيسـة لتاريـخ الخليـج العـربي، ولا يمكـن لأي باحـث الاسـتغناء عنهـا، وقـد اسـتفدتُ مـن علمـهما كـثيرًا، حيـث إن الدكتور العقّـاد كان مشرفًـا على رسـالتي الدكتـوراه والماجسـتير، أمـا الدكتـور جمـال فـكان مـن ضمـن المناقـشين، وعلى العمـوم أكـنُّ لهما كل التقديـر، حيـث تتلمـذت على أيـديهما، واسـتفدت كـثيرًا مـن علمهما. يقـول المثل العـربي: "مـن علمنـي حرفًـا صرت لـه عبـدًا"، ولكنّـي أرى أن الأصحّ: "صرتُ لـه تلميـذًا"؛ فالعبوديـة تنتهـي، بينما التلمذة خالـدة للأبد.

وفّقنـي الله في إنتـاج العديـد من الدراسـات التاريخيـة والفكرية حول الخليـج العـربي وإيـران، بـدءًا مـن الدولـة الصفويـة إلى عصر رضا شـاه وعلاقتهـا مـع الخليـج العـربي، وكان الكـثير مـن اهتمامـي عن السـاحل الشرقـي للخليـج، ومـازال السـاحل الشرقـي بحاجـة إلى كـثير مـن الدراسـات منـذ الغـزوات الاسـتعمارية الأوروبيـة، بـدءًا مـن الغـزو البرتغـالي والهولنـدي والفـرنسي ثـم الإنجليـزي والآن الأميركـي.

وقد حصلتُ على العديد من الجوائز والأوسمة والشهادات، وأهم تلك الجوائز: جائزة الدولة التشجيعية في عام 2008م، التي قلّدني إياها صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني -الأمير الوالد-، وأعتز بهذه الجائزة كثيرًا كونها قُدّمت من وطني العزيز، وكذلك لأنها برعاية الأمير الوالد، مؤسس دولة قطر الحديثة وراعي نهضتها حفظه الله.

وعلاوة على ذلك حصلت على العديد من الشهادات والأوسمة، منها:

- وسام المؤرخ العربي من اتحاد المؤرخين في بغداد.
- وسام شوامخ المؤرخين العرب من اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة عام 2006م. (وقد كنتُ من ضمن مؤسسي هذا الاتحاد).
- تكريم جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، التي كنت من مؤسسيها مع الزملاء الكرام من المؤرخين الخليجيين.

كما أني أعتز بجائزة الدوحة للكتاب العربي، وأرجو أن تلقى هذه الجهود قبولًا من الله سبحانه وتعالى، وأن تكون مخلصة لوجهه الكريم، وأن يستفيد منها المشتغلون بتاريخ الخليج العربي.

غانم قدوري الحمد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد، فيسرني المشاركة معكم في هذا الحفل التأسيسي لجائزة الدوحة للكتاب العربي، التي تمثل حدثًا ثقافيًّا وعلميًّا متميزًا، وأشكر، بعد شكر الله تعالى، المشرفين على الجائزة لشمولي بهذا التكريم ودعوتي لحضور هذا الاحتفال، وأود أن أتحدث إليكم باختصار عن مسيرتي العلمية ومنجزاتي البحثية، ولو أن الحديث عن النَّفْسِ أمر غير مُحَبَّذٍ، لكني أَجِدُ أنَّ من حق الجائزة عليَّ حين اختارتني أنْ أُوضِحَ ركائز ذلك الاختيار ومستنداته، ويتلخص في تأليف (36) كتابًا، وتحقيق (40) نصًّا مخطوطًا، وكتابة (86) بحثًا.

أما البدايات فترجع إلى أكثر من خمسين سنة خَلَتْ، فبعد أن أكملت دراسة البكالوريوس في قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة الموصل في سنة 1971م بِتَفَوُّقٍ، حيث كان تسلسلي الأول في الكلية، طَمَحَتْ نفسي إلى مواصلة دراستي، بدعم من أسرتي، وبتشجيع من أستاذي الفاضل طيب الذكر الدكتور أمين علي السيد، رحمه الله تعالى، رئيس قسم النحو والصرف في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، الذي كان منتدبًا للتدريس في كلية الآداب في جامعة الموصل لمدة ثلاث سنوات، فدعاني للقدوم إلى القاهرة والتقديم إلى كلية دار العلوم لدراسة الماجستير، وتحقق ذلك في العام الدراسي 1973/ 1974م، ودرست في قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية في الكلية.

وكان انتسابي للدراسة في قسم علم اللغة في كلية دار العلوم بداية لبناء شخصيتي العلمية وتوجيه طاقاتي البحثية، على يد أساتذة أفاضل، أخص بالذكر منهم: الأستاذ الدكتور كمال محمد بشر، أستاذ علم الأصوات، والأستاذ الدكتور محمد سالم الجرح، أستاذ علم اللغة المقارن، والأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، أستاذ اللغويات الحديثة، رحمهم الله تعالى، فقد ارتبطتْ جميع أنشطتي العلمية التدريسية والبحثية اللاحقة بما تعلمته في كلية دار العلوم على يد هؤلاء الأساتذة، وتركز ذلك في مسارين، الأول: مسار دراسة

الرسم المصحفي والكتابة العربية، والثاني: مسار الدراسة الصوتية بجانبيها اللغوي والقرآني.

أما المسار الأول فكان اختيار موضوع رسم المصحف في رسالة الماجستير، باقتراح من أستاذي الدكتور عبد الصبور شاهين، بداية لمسار علمي طويل، ونتاج علمي غزير، وقد حدد اتجاهه مقترح الدكتور كمال بشر بأن يكون العنوان: **رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية**، فدرست الموضوع من الجانب اللغوي، النطقي والكتابي، وموازنة ذلك بما أنجزه علم الكتابات القديمة (الباليوجرافيا)، وأثمر ذلك كتاب **رسم المصحف** الذي طبع في 825 صفحة سنة 1982م، وفَتَحَتْ لي دراسة هذا الموضوع محاور فرعية مكملة للمسار الرئيسي، منها :

المحور الأول: تحقيق عدد من كتب علم رسم المصحف وضبطه.

المحور الثاني: تأليف عدد من الكتب وكتابة عدد من البحوث، تتعلق بعلم رسم المصحف وتعليل ظواهره، ودراسة علم الكتابة العربية، وربطه برسم المصحف.

أما المسار الثاني فكان يدور حول التراث الصوتي العربي القديم وربطه بالدرس الصوتي الحديث، فقد كانت دراسة علم الأصوات

اللغويـة في كليـة دار العلوم قد لفتت نظـري إلى علم التجويد، ولاحظت وجـود تشـابه بين كـثير من موضوعـات هذين العلمين، لكـن ثمة فجوة بين مؤلفـات هذيـن العلـمين، وبين المشـتغلين بهما، وترسـخت لـدي قناعـة بإمكانيـة تضييـق تلـك الفجـوة بينـهما، فكتبـت بحثـاً عـن نشـأة علـم التجويـد، وحققـت بعض نصوص هـذا العلم القديمة، وسَـجَّلْتُ أطروحتـي للدكتـوراه بقسـم اللغة العربيـة بكليـة الآداب بجامعة بغداد عـن (الدراسـات الصوتيـة عند عـلماء التجويد)، وأنجزتها سـنة 1985م، بـإشراف أسـتاذي الدكتـور عدنان محمد سـلمان، رحمه الله، وطبعت سـنة 1986م، في 525 صحيفـة.

وفَتَحَـتْ لي دراسـة هـذا الموضـوع محـاور فرعيـةً مُكَمِّلَـةً للمسـار الرئـيسي أيضًـا، منهـا:

المحور الأول: تحقيق عدد من كتب علم التجويد القديمة.

والمحـور الثـاني: تأليف عـدد من الكتـب، وكتابة عدد مـن البحوث، على نحـو يجمـع بين علـم الأصـوات اللغوية وعلـم التجويـد باعتبارهما موضوعًـا لعلـم واحـد، ويهدفـان إلى تحقيـق هـدف واحد، هو الكشـف عـن النظـام الصـوتي العـربي، وكيفيـة رياضـة الألسـن وفـق قواعـده، وتخليصـه مـن شـوائب اللحـن الخفي.

وأما البواعث، فإن أعمالي العلمية التي تلت كتابة رسالة الماجستير وأطروحة الدكتوراه كانت تستند إلى رؤية تبلورت لدي شيئًا فشيئًا، وتهدف إلى تأصيل دراسة علوم القرآن الكريم ذات البعد اللغوي، وهي تتمثل بعلم رسم المصحف وضبطه، وعلم التجويد والتلاوة، بالرجوع إلى أهم مصادر هذه العلوم، وإثرائها من خلال الإفادة من معطيات العلوم اللغوية الحديثة، مثل علم الكتابات القديمة، وعلم الأصوات اللغوية.

وقد تكون تلك الرؤية غير واضحة المعالم في بداية مسيرتي العلمية، لكن سرعان ما تكاملت واتضحت أبعادها لَدَيَّ. وكنت قد تأثرت بما كتبه الأستاذ الدكتور عبده الراجحي رحمه الله تعالى، الذي ناقشني في رسالتي للماجستير، وبَقِيتُ على تواصل معه، وأستفيد من كتبه في أبحاثي وتدريسي لطلبتي، فقد كان يسير على منهج واضح في مؤلفاته يجمع بين التراث اللغوي العربي القديم والدرس الحديث، وهو يقرر "أن الاقتصار على الدرس التقليدي غير صحيح، كما أن الاقتصار على الدرس الحديث غير صحيح كذلك". (**دروس في المذاهب النحوية**، ص 6)، ومن ثم فإنه كان يرى "أن الاتصال بالتراث من ناحية، والاتصال بالمنهج الحديث في تطوره السريع من ناحية أخرى، واجب قومي لا

ينبغي أن يكون في ذلك خلاف". (**النحو العربي والدرس الحديث**، ص 7).

وأما نظرتي إلى المنجز العلمي الذي حَقَّقْتُهُ فإني أشعر أن أعمالي العلمية قد قدَّمت رؤية واضحة في مجال دراسة الرسم القرآني والكتابة العربية، وفي مجال الدرس الصوتي وعلم التجويد، وأنَّ ما كتبته قد حظي باهتمام المتخصصين وطلاب العلم، والحمد لله رب العالمين. ومن مظاهر التوفيق في مسيرتي العلمية، أسأل الله تعالى القبول:

1. أنَّ عددًا من كتبي اعْتُمِدَتْ كمقررات دراسية في الدراسات الأولية والدراسات العليا.
2. ترجمةُ عدد من كتبي إلى عدد من اللغات.
3. كتابةُ عدد من الرسائل حول أعمالي العلمية.
4. من أوضح مظاهر التوفيق اختياري ضمن قائمة أصحاب الإنجازات العلمية المتميزة ضمن جائزة الدوحة للكتاب العربي.

وبعد أن أَمْضَيْتُ هذا الشوط من عمري في البحث والتأليف، استجد في الساحة العلمية في السنوات العشر الأخيرة أمران مهمان، يتعلقان بالموضوعات التي درستها، وهما:

الأول: نَشْرُ مئات من المصاحف المخطوطة، مُصَوَّرَةً تصويرًا عالي الدقة، في الشبكة الدولية للمعلومات، مما لم يكن متاحًا للدارسين من قبل.

والآخر: العثور على آلاف النقوش العربية الإسلامية المبكرة في جبال الحجاز، حول مكة والمدينة وفي طرق القوافل والمنتجعات، وهو أمر أدهش الباحثين وأثار حماستهم واهتمامهم.

وقد استحوذ الاهتمام بهذين المصدرين الجديدين للمعرفة على جل أنشطتي العلمية، بقدر ما تيسر لي من وقت، وبقدر ما تسمح به حالتي الصحية، وظهر ذلك جليًّا في كتاب **علوم القرآن بين المصادر والمصاحف** (2018م)، وكتاب **النقوش القرآنية المبكرة: دراسة في الدلالة التاريخية والظواهر الكتابية** (2021م)، وفي كتاب **المدخل إلى علوم المصحف الشريف** (2024م)، ولا يزال ميدان البحث رحبًا في هذين المجالين.

في الختام، أرجو أني تمكنت من توضيح البدايات والبواعث والمنجزات لمسيرتي العلمية، التي جعلت المشرفين على جائزة الدوحة للكتاب العربي تشرفني بالدعوة لحضور هذه المناسبة العظيمة وشمولي بهذا التكريم.

ولا يسعني في الختام إلا أن أكرر الشكر لدولة قطر، أميرًا وحكومة وشعبًا، وللقائمين على الجائزة، على هذه المبادرة الرائعة التي سوف يكون لها أثر طيب في نفوس الباحثين، خاصة من الشباب، لإثارة حماستهم وتفجير طاقاتهم لخدمة الأمة وتقدمها. حَفِظَ الله دولة قطر الرائدة في كثير من المجالات التي تَخَلَّفَ عنها غيرها، والحمد لله رب العالمين.

فيحاء عبد الهادي

أصحاب المعالي والسعادة، أصحاب الفكر والمعرفة والعلم في كل بقاع العالم: حين تكرّمني جائزة الدوحة للكتاب العربي؛ فإنها تكرّم إنجاز المرأة العربيّة، كاتبة ومفكِّرة وعالِمة ومؤرِّخة وأديبة وفنانة، ومساهمة في إثراء الفكر الإنساني، وتكرِّم إنجاز المرأة الفلسطينية بشكل خاص، في غزة والقدس ونابلس وجنين وحيفا ويافا وصفد وعكا، وفي كلّ مدينة وقرية ومخيم فلسطيني في الوطن المحتلّ، وفي الشتات، تلك المرأة التي تساهم مساهمة فاعلة ومؤثِّرة في المشهد الثقافي العربي والعالمي، رغم المعاناة التي تتعرَّض لها يوميًّا على الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية كافة، خاصة في غزة الآن، حيث تكتب المرأة الفلسطينية روايتها التاريخية بدمها وبلحمها الحيّ.

ارتبطت مسيرتي العلمية والثقافية بشكل عضوي بوطني المحتلّ؛ إذ تفتّح وعيي منذ الطفولة في نابلس على جرس الكلمة الحُرّة، على الشعر والأدب والفكر المرتبط بالمقاومة والحرية والكرامة الإنسانية، في بيت أدب وعلم وثقافة وسياسة.

حبَّبني والديّ بالأدب العربي، وبالشعر بشكل خاص، ومنذ المرحلة الابتدائية حاولت قرض الشعر، والتهمت الكتب الأدبيّة والتاريخية والفلسفية، وكان فضل مكتبة بلدية نابلس كبيرًا؛ إذ ظلت معلماً ثقافيًّا، ومنبعًا للمعرفة، طوال إقامتي في مدينة نابلس.

لازمني حبّ الأدب طوال دراستي الأكاديمية، ولازمني طوال حياتي، وكان منقذي ومُخلِّصي، حيثما واجهتُ العقبات والصّعاب، في المدرسة، والمعتقل، والجامعة، وفي الحياة الرّحبة.

في السجن، كان الكتاب الذي أستعيره وزميلاتي من مكتبته المتاحة خير جليسٍ لنا، وخاصة كتب الأدب والتاريخ. أما الشعر فقد لعبت كلماته، وخاصة الملحّنة؛ دورًا كبيرًا في تحقيق لُحمتنا، وشحذ عزائمنا، وفي احتمال التعذيب، وفي تبادل الرّسائل السرّيّة، وفي الصمود في وجه المحقِّقين.

كتبت شعرًا في السجن، وأرسلته إلى الكاتب الشهيد غسان كنفاني، فنشره في مجلة **الهدف**. كانت تلك أولى قصائدي المنشورة.

وفي الجامعة، أنقذني الشعر المكتوب على قُصاصةِ ورق -الذي قدّمته للأستاذ الدكتور محمود السمرة/ عميد كلية الآداب-، من الالتحاق بـ"كلية التجارة"، وكان سببًا في قبولي في "كلية الآداب"، في الجامعة الأردنية، مع أنني لم أنل المعدل المطلوب؛ لأنني تحرّرت من السجن الإسرائيلي قبيل تقدمي لامتحان الثانوية العامة.

كرَّست دراستي الأكاديمية للنقد الأدبي، في الرواية والقصة والمسرح، وحين درست التاريخ الاجتماعي، من منظور النساء، لامسني وسحرني ما يزخر به من مخزون ثقافي واجتماعي. وجدت الشعر، والقصص، والسير الشعبية، والأمثال الشعبية، والموسيقى، والغناء، ووجدت الحكمة الشعبية.

كما وجدت تقاطعًا خاصًا بين التغيير الذي يتيحه هذا المنهج، حيث يمكن إعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر النساء، وبين النقد الأدبي، الذي يتيح تغييرًا سياسيًّا اجتماعيًّا بشكل غير مباشر، عبر تفكيك المسلَّمات والأفكار الجاهزة، وإعادة إنتاج الثقافة.

يهتم التاريخ الاجتماعي، من وجهة نظر النساء، بالربط بين المجال الخاص والمجال العام؛ الأمر الذي يتيح فهم علاقات القوة في المجالين. وهو يهتم بتسجيل التفاصيل، وبالتقاط المشاعر، والصوت الخفيّ؛ وليس فقط بتسجيل الحدث.

ويهتم الأدب، من وجهة نظر النساء، بإعادة الاعتبار لصوت المرأة وجعله مسموعًا. كما يهتم بالكشف عن الكاتبات المهمّشات، اللواتي طُمِست أعمالهنّ أو أهملت. وهنا يلتقي مع التاريخ الاجتماعي لكنه يختلف في لغة الكتابة؛ فبينما يهتم التاريخ الشفوي بالإخلاص للغة المحكيّة؛ يعيد الأدب إنتاج الواقع، بلغته الفنيّة الإبداعية الخاصّة.

من خلال كتاباتي الشعرية والنقدية والتاريخية، أحاول الإخلاص للأدب بعلاقته مع التاريخ والحياة، وللتاريخ بعلاقته مع البشر.

آمنت بقدرة الكاتب، الذي يمتلك موهبة أصيلة، على الاستفادة من الحياة في أدبه، خاصة إذا كان منغمسًا في العمل السياسي، دون أن يطغى الشعار السياسيّ. وكان غسان كنفاني هو المثال الأكثر تجسيدًا لأفكاري عن الاتصال والانفصال بين الأدب والسياسة.

في كتابي **وعد الغد: دراسة في أدب غسان كنفاني**، وقفت عند غسان الفنان، الذي كتب الرواية، والقصة القصيرة، والمسرحية، والمقالة

الأدبيّة، والمقالة السياسية، بالإضافة إلى ممارسته فنّ الرسم. طوَّر غسان أدواتِه الفنية عبر التجريب الفنيّ؛ مما جعله يضيف إلى الرواية الفلسطينية والعربية، ويكون مثالًا لتكامل حقول المعرفة الإنسانية.

أما المرأة، فهي تتصدَّر كتاباتي كافة. تقصَّيت دورها في التاريخ، وفي الأدب، وفي الشعر، وفي الحياة.

حين وقفت عند قصص البطولةِ الفلسطينية التي رسخت في وجدان الشعب، وجدتها في معظمها تتحدث عن الرجل/ البطل، وقليلها يتحدث عن المرأة/ البطل، بمعنى البطولة في ميدان القتال، والكفاح الشعبي. وإذا رجعنا إلى السبب في هذه الظاهرة، وجدنا أنها تعود إلى صورة للمرأة رسخت في ذهن الرجل وذهن المرأة، وهي لا تخضع في كثير من الأحيان لأسباب منطقية، بقدر ما تخضع لمجموعة من القوالب الفكرية المسبقة، ذات الطابعِ الأسطوريّ.

من خلال كتابي **نماذج المرأة/ البطل في الرواية الفلسطينية المعاصرة**، حاولت رصد صور البطولة النسوية الفلسطينية، في الروايات التي احتلت المرأة الشخصيات الرئيسة المحرِكة فيها.

ومن خلال كتب التاريخ الشفوي، قمت بالتركيز على "قضايا المرأة الفلسطينية"، والتقطت النساء المهمّشات والمنسيّات والرائدات،

في محاولةٍ لتسليط الضوء عليهن، وتتبع أدوارهن التاريخية منذ الثلاثينيات، **المرأة الفلسطينية والذاكرة**، و**ببليوغرافيا التاريخ الشفوي الفلسطيني** بالتركيز على المرأة الفلسطينية، و**أدوار المرأة الفلسطينية في الثلاثينيات**، و**أدوار المرأة الفلسطينية في الأربعينيات وأدوار المرأة في الخمسينيات حتى منتصف الستينيات**، و**أدوار المرأة منذ منتصف الستينيات حتى عام 1982**، و**لو أملك الخيار: قصص من الحياة اليومية للنساء الفلسطينيات خلال العامين 2002–2003 من الانتفاضة الثانية**، و**الأمل أغلى ما أملك**.

ومن خلال النصوص الإبداعية: **هل يلتئم الشطران**، و**وردة الروح**، أبرزت شخصيات نسوية تفاعلت معها، عبر المعرفة الشخصية أو القراءة أو التسجيلات الصوتية.

ومنذ العام 2012 وحتى الآن، يتركّز عملي وإنتاجي على موضوع الذاكرة الفلسطينية، عبر مركز "الرواة للدراسات والأبحاث"، المعنيّ بشكل رئيس بتوثيق رواياتِ التهجير الفلسطينيّ الممتدّ منذ عام 1948، بشكل علمي، بالصوت والصورة والكلمة، والمعنيّ بفتح أرشيفاته لإنتاج الكتب، والمعارض الفنية، والأفلام الوثائقية، والعروض المسرحية، وعروض الحكي، وغيرها من الوسائل الأدبية والفنية والعلمية.

فتحت الرواة خزائن الذاكرة لتنشر كتابين: **ذاكرة حية**، و**مرآة الذاكرة**، ثم فتحت صناديق الأرشيفات لتنظّم معرضًا فنيًّا بعنوان "قول يا طير"، بهدف نقل رسالة المهجّرين الفلسطينيين عام 1948 إلى الأجيال الشابة في فلسطين، وإلى الفلسطينيين والعرب وشعوب العالم خارجها.

طار الطير من القدس ورام الله ونابلس؛ حيث نُظِّمَ المعرض، في العامين 2017 و2018؛ ليحطَّ في عمان والبحرين والقاهرة في العامين التاليين؛ وليخطّط بعدها لاستكمال رحلته حول العالم؛ حتى ينقل رسالته بالصوت والصورة (الصورة الفوتوغرافية، والفيلم الوثائقي، واللوحة الفنية، والمقتنيات التي حملها المهجّرون الفلسطينيون في رحلتهم القاسية).

تتداخل حقول المعرفة وتتقاطع، ويستفيد كل منها من الآخر. ومع انغماسي حاليًا في الكتابة المتخصِّصة في حقل التاريخ الشفوي، أطمح إلى إنتاج المزيد من الكتب التي تحمل روايات الشعب الفلسطيني، وإلى تطوير أرشيف الرواة وإتاحته رقميًّا، بالتعاون مع المؤسّسات البحثية التي تعمل في المجال ذاته؛ كي يكون في متناول كلّ من يبحث عن الرواية الفلسطينية التاريخية من مصادرها؛ ليؤرِّخ، أو يكتب أدبًا، أو برامج تربوية، أو برامج إعلامية، أو ينتج فنًا إبداعيًّا.

أَقُصُّ حِكاياتي
أَلوي عُنُقَ الزَّمن
أَعصُرُ ماضِيَّ
أَكون

أَدخُلُ التّاريخَ
جميلةً بَهِيَّةً
أَفرشُ رِدائي
يَتَفَجَّرُ النَّبعُ
يَهمي الشَلال

ناريمانُ/ الأقحوانُ/ مَهيبة
روبينُ/ الهَودَجُ/ الشَّطرَنج
المَوَّالُ/ الدَّبكَةُ/ التَّبَّان
أَيُّوبُ/ العَجَمِيُّ/ النَّبي صالح
سَلَمَةُ/ أجنادينَ/ الفَحَّام
تَمتَدُّ حِبالُ الكَلِمات

تَتَسَوَّرُ بالبرتُقالِ
الكينا
السَّفَرجَلِ
تَتَسلَّقُ وتَطوف
عَمَّانَ/ دِمشقَ ولُبنان
الكاكيَّ/ الشَّلاَّلاتِ/ وَشَجرَ الأَرز
البَقعةَ/ اليرموكَ/ وتَلَّ الزَّعتر

أَنفُخُ أَحرُفي
أُشَكِّلُ عالمي
أَصنَعُ تاريخي
وأكون

شكرًا لجنة جائزة الدوحة للكتاب العربي، شكرًا الحضور الكرام، معًا وإياكم من أجل الارتقاء بصناعة الكتاب العربي، تأليفًا وبحثًا وإنتاجًا عربيًّا وإنسانيًّا متميزًا.

سعد البازعي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين. أود في بداية هذه الكلمة أن أتوجه بجزيل الشكر لجائزة الدوحة للكتاب العربي التي شرفتني بالتكريم وإتاحة الفرصة لي للتحدث إليكم. إن الدوحة بتقديمها هذه الجائزة تكرس دورها الريادي في دعم الثقافة العربية في مجال يقل فيه التكريم قياسًا إلى مجالات أخرى كثيرة. فالعلوم الإنسانية التي تقع في سياقها معظم الأعمال المكرمة ويعمل في إطارها المكرمون هنا، من علوم شرعية إلى علوم لغة إلى فلسفة ودراسات أدبية وتحقيق وأعمال موسوعية، تلك العلوم باتت تعاني اليوم من نقص في الدعم، بل من نظرة هي أبعد ما تكون عما تستحق من اهتمام. ويتضرر من نقص الدعم ما ينشر من كتب في تلك المجالات التي تعد في صلب الثقافة والارتقاء الحضاري، وهي

التي جعلت مادتها مجتمع الإنسان وما ينتج من فكر ويتأثر به من متغيرات، وهل هنالك ما هو أهم من ذلك للحياة الإنسانية ورفعة الإنسان؟

تأتي هذه الجائزة اليوم لتعزز الاهتمام بالمنتج العربي في الفكر وعلوم اللغة والأدب والشريعة، وفي العناية بالتراث العربي الإسلامي تحقيقًا ونشرًا. وحين نقول المنتج العربي فإننا نلتفت إلى وضع الكتاب العربي الذي أود الإشارة إليه في الفضاء العام قبل التحدث عن علاقتي الشخصية به.

إن الكتاب العربي اليوم ليس في أفضل حالاته، فعلى الرغم من النهوض الملحوظ في التأليف والنشر في أرجاء الوطن العربي كافة، فإن الكتاب يئن تحت وطأة عوامل تحد من انتشاره وتأثيره بالصورة الإيجابية المنشودة. يعاني الكتاب من القيود المفروضة عليه، وكذلك من مشاكل في النشر والتوزيع. وهذه المشاكل هي التي تجعل طفرة التأليف محدودة الأثر. لقد بات القارئ العربي ينتظر معارض الكتب وهي تتنقل من عاصمة ومدينة إلى أخرى، لكي تمده بما يصعب الوصول إليه في مكتبات بيع الكتب أو الوراقين. إننا إذ نحتفل بالكتاب بحاجة إلى استعادة تلك المشكلات التي تحيط بالكتاب سعيًا لوضع حد لها.

وإذا كانت المشكلات المشار إليها مما يمكن معالجته بتغيير النظرة إلى الثقافة والقوانين التي تحكم إنتاجها وتداولها، فإن من المشكلات أيضًا ما يصعب إصلاحه بالقوانين أو حتى بالنظرة إلى الثقافة. إنه نوع المنتج الثقافي الذي يدفع إليه البحث عن الربح، ذلك المنتج هو الذي يتصدر الواجهات في دور بيع الكتب. لو ألقينا نظرة إلى نوع الكتب المتاحة للناس لوجدنا أن ألوانًا من الإنتاج تأتي في الصدارة، يبرزها البائع لأنها تدر ربحًا بعد أن اتضح إقبال القراء عليها. حين تتصدر كتب مثل كتب ما يعرف بتطوير الذات أو الروايات الرومانسية البسيطة واجهات البيع، وتتراجع كتب العلم والفلسفة والفكر بصفة عامة إلى الرفوف الخلفية، فإن مشكلة كبرى تحيط بالثقافة والمعرفة عامة. وإذا كانت هذه المشكلة تكاد تكون عالمية نراها في كثير من البلاد، في المطارات والأسواق وغيرها، فإن الضرر الذي يتحقق من هيمنتها على مجتمعات نامية مثل مجتمعاتنا أكبر وأشد ضراوة، ذلك أن ما يتغذى به عامة القراء أقرب إلى الكوليسترول الثقافي منه إلى ما يفيد ويغذي العقل، يقترح الآفاق ويشعل الأسئلة في وقت نحن أحوج ما نكون إلى بناء الإنسان فكريًّا وعلميًّا.

من هذا المدخل العام أدلف إلى تجربتي في التأليف، وهي تجربة ولدت في رحم الكثير من المشاكل التي تعتري الثقافة حيث كانت،

فلا وضع مثاليٌّ كان يمكن حدوثه أو تخيله. غير أن تجربة التأليف مرت بتجربة أهم وأعمق أثرًا، بل هي الأساس لها: إنها تجربة القراءة، والقراءة جزء من التعليم. تعلمت القراءة داخل المدرسة وخارجها، وأظن أن ما جاء من الخارج لم يقل أهمية إن لم يفق ما تعلمت في المدرسة، وقبل المدرسة كان البيت، البيت الذي صنعته والدتي نورة السديري رحمها الله قبل أن يصنعه أحد، فهي التي جعلت تعليمي وتعليم إخوتي هدفًا أساسيًّا في حياتها، هدفًا يعوضها، كما كانت تردد، عما فاتها أو لم تنله في حياتها. رأت وهي التي لم تعرف سوى الكتاتيب في قريتها الصغيرة وسط نجد، وعلى الرغم من أن بيتها بيت إمارة وعز، أن في التعليم عزًا ورفعةً؛ فوقفت دائمًا تحث وتدعم وتمهد الطرق لتعليم أفضل، لتباهي في نهاية المطاف بما كان صنيعة يديها بعد الله.

جاء دور والدي بعد ذلك داعمًا حين ساعدني، رحمه الله وأجزل له المثوبة، وهو الذي لم يتلق من التعليم المدرسي شيئًا يذكر، على قراءة عناوين الصحف، تهجئة وفهمًا وكانت التهجئة أكثر من الفهم حينها لمحدودية قدراتي في تلك السن المبكرة. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي اختلفت فيه مع شقيقتي التي تصغرني بسنة أو ما يقارب السنة، رحمها الله رحمة واسعة. كان اختلافنا كاختلاف الصغار على لعب

نتوزعها ثم نختلف أحيانًا على التقسيم. قال أخي الأكبر محمد، وهو ممن رحلوا إلى رحمة الله الواسعة أيضًا: لم لا تكون لك مكتبة؟ فكان أن انفتح من ذلك الاقتراح باب ما يزال مفتوحًا. كانت مكتبة صغيرة لا تتضمن سوى دفاتر وكتب مدرسية، لكنها ما لبثت أن تنامت بشراء المزيد حين كان أخي يصحبني في رحلات إلى مكتبات قريبة. كنا في مدينة الرياض أوائل الستينيات الميلادية وكان منزلنا غير بعيد من أماكن الوراقين في شارع يعرف بشارع البطحاء. من أولئك الوراقين ومع مرور الأعوام تنامت المكتبة بقصص من أماكن مختلفة بعضها مترجم، مثل المكتبة الخضراء، وبعضها مؤلف عربيًّا مثل قصص الكاتب المصري عبد الحميد جودة السحار وغيره.

في السنوات التي تلت كانت المكتبة مصدر تفاخر لي بين أقراني، تفاخر طفولي أكثر منه معرفي أو على أساس حقيقي من المعرفة. لكن نقلة أخرى جاءت في المرحلة الثانوية حين تولى تعريفي بما يجب أن أقرأ أخ آخر يكبرني أيضًا هو عبد الله. جاءت القراءة هذه المرة أكثر جدية وعمقًا، شملت روايات روسية لدوستويفسكي وغوركي وكتبًا في الفكر والثقافة العامة. كان الفكر اليساري والقومي منتشرًا حينذاك، فاستهواني ذلك الفكر لبعض الوقت لكني سرعان ما انشغلت عنه بدراستي الجامعية والتخصص في الأدب الإنجليزي

ثـم الـزواج والابتعـاث، تلك الرحلـة التي اسـتغرقت مني مـا يزيد على السـبعة أعـوام في الولايـات المتحـدة رزقـت أثناءهـا مع زوجتـي بابنتينا ريما وعليـاء.

تطـورت اهتمامـاتي المعرفيـة بصورة أعمـق من ذي قبل أثناء الدراسـة العليـا فتعرفـت على كتـاب وأعمال أدبيـة وفلسـفية مهمـة أحدثـت نقلة كبرى في تفـكيري، إلى أن جـاءت مرحلـة الدكتوراه برسـالة كتبتها حول الاسـتشراق، وكانـت تلك نقلة أخـرى، فقد تعرفت في تلـك المرحلة إلى إدوارد سـعيد وميشـيل فوكـو، المفكريـن اللذيـن تـركا أثـرًا عميقًا ليس في تنـاولي للاسـتشراق الأدبي كما أسـميته، وإنما في تنـاولي للعديـد مـن القضايـا، فعلاقـة الثقافة بالسياسـة ومفهـوم الخطاب الفوكـوي كانا من أهـم المكتشـفات بالنسـبة إلي، ومـن يطلـع على أعمالي التي تلـت في حقبة التسـعينيات ثـم النصـف الأول مـن الألـف الثانيـة سيرى ذلـك التأثير. ومـع اهتمامـي بالخطـاب تطور اهتمامـي بالآخر، من خلال الرسـالة التي تناولـت فيهـا تمثيلات العـرب والمسـلمين في الآداب الأوروبية، ولم يزل الآخـر حـاضرًا في اهتمامـاتي البحثيـة وما أسـفرت عنه.

حين عـدت مـن البعثة كان عبـد الوهاب المسيري رحمـه الله بانتظاري في المكتب الذي شـغلته في قسـم اللغـة الإنجليزية بجامعة الملك سـعود، فقـد كان رحمـه الله أسـتاذًا في القسـم ومكتبـه مجـاورًا لمكتبـي، لكنـي لم

أعـرف أهميتـه الحقيقيـة إلا بعـد مضي بعـض الوقـت. بـدأ اهتمامـي مـع المـسيري بمفهـوم التحيـز فتطـور لـدي مـن جـذور كانـت كامنـة منـذ رسـالتي للدكتـوراه. انضـم التحيـز بتأثير المـسيري إلى مفاهيـم الخطاب والآخـر لتكـون تلـك علامـات فكرية رئيسـة في تطـور أعمالي.

لكـن قبـل اهتمامـي بالتحيـز جـاء انشـغالي بـالأدب في السـعودية والجزيـرة العربيـة عامـة ثم بـالأدب العـربي، فدخلت في معمعـة الحداثة الأدبيـة التـي بـدأ حراكهـا في أواسـط الثمانينيات، لتسـفر عـن أول كتبي وهـو **ثقافـة الصحـراء** (1991)، وتتلو ذلك كتب أخرى في ذات السـياق، ليتطـور الأمـر بعـد ذلـك في الاتجاهات الفكريـة التي ألمحـت إلى بعضها لتسـفر عـن كتـاب **دليـل الناقـد الأدبي**، مـع الزميـل الدكتـور ميجـان الـرويلي، وكتـب أخـرى تضمنـت مقـالات وأبحاثًـا سـبق نشرهـا مثل **الاخـتلاف الثقـافي وثقافـة الاخـتلاف** و**شرفـات للرؤيـة** و**قلـق المعرفة**. ومـن المهـم أن أشير إلى أننـي قبـل ذلـك كنت قـد عملت محـررًا لمشروع سـعودي نوعـي هو **الموسـوعة العربيـة العالمية**، التي صـدرت عام 1998، وكان أحـد الأصدقـاء وهـو الدكتـور أحمـد الشـويخات قد أسسـها وبدأ العمـل عليهـا، وهـو الذي دعـاني للمشـاركة في إنجـاز المشروع الكبير.

في 2007 صـدر كتـابي **المكـون اليهـودي في الحضـارة الغربيـة**، الـذي اسـتغرق منـي ما يقرب الخمسـة أعوام مـن البحث في مكتبـات بريطانية

وأميركية. تتالت بعد "المكون" كتب أخرى وانشغالات أثناء ذلك من بينها انضمامي لمجلس الشورى عام 2009، وعضويتي في المجلس الدولي لدعم الثقافة باليونسكو. غير أن تلك المشاغل لم تصرفني عن البحث والتأليف، فجاء انشغال آخر هو الترجمة ليسفر عن عدد من الكتب، كان منها كتاب بعنوان **المسلمون في التاريخ الأميركي**، وكتاب للمفكر والروائي الكيني نغوغي وا ثيونغو، مثلما كان من بينها، ولربما كان الأبرز من حيث الجهد، كتاب بعنوان **معالم الحداثة** (2021)، تضمن نحو ستين نصًّا فلسفيًّا وعلميًّا ونقديًّا أدبيًّا غربيًّا تمتد من القرن السابع عشر حتى العشرين.

مع أن تجربتي في الترجمة جاءت متأخرة بالنسبة إلى باحث غارق في اللغة الأجنبية وما تتيحه من اطلاع على الثقافات الأخرى، فإنها أثمرت عن عدد لا بأس به من الأعمال التي انطلقت من ذات الرؤية التي شكلت التأليف: الجزم بأن معرفة الآخر مهمة كبرى من مهام المشروع الحضاري العربي الإسلامي. جاءت الكتب والمقالات المترجمة لتعبر عن ذلك الاعتقاد الجازم بصور مختلفة. ومع الترجمة جاء رافد العناية بالمفاهيم وتحولاتها، وكان في ذلك انشغال بالترجمة وإن جاء من زاوية غير مباشرة؛ لأن انتقال المفاهيم بين اللغات والثقافات، أو ما أسميته "هجرة المفاهيم"، صورة أخرى من صور الترجمة. عزز ذلك

كلـه انشـغال قديـم أو أمل قديم بأن أنظـر في طبيعة التشـكل الحضاري: كيـف تتشـكل الحضـارة. واخترت للبحـث في ذلـك التشـكل أن أنظـر في النمـوذج الحضـاري الأهـم والأكثـر تـأثيرًا، بـل هيمنـة في عالمنا وهو الحضارة الغربية. وحين نظرت في طبيعة ذلك التشـكل عدت إلى مسـألة كان عبـد الوهـاب المسيري قـد نبهنـي إليهـا وهـي التـأزم الحضـاري، ودعوتـه إلى أن نصنـع عـلمًا اسـمه "علـم الأزمـة". تـبين لي أن مفكريـن غربـيين كبـارًا قـد شـغلوا بالتـأزم، مثـل إدغـار مـوران وزيغمونـت باومـان، فبـدأت مشروعًـا مـا زال قيـد التنفيـذ هـو دراسـة "التـأزم في الحضـارة الغربيـة"، أعـده امتـدادًا وتوسـيعًا وتعميقًـا أيضًـا لدراسـتي لمفهومـي التحيـز والآخر.

تلـك كانـت بعـض وجـوه الانشـغال، أو لعلـه التـأزم الـذاتي الـذي عبرت عنـه أشـكال مختلفـة مـن الكتابـة والتأليـف: الكتـاب والورقـة البحثيـة والمحـاضرة والمقالـة، بـل والعمـل المـؤسسي في دوائـر الثقافـة ومشـاريعها. وكان أن أسـفر كل ذلـك بحمـد الله عـن تقديـر لمسـته وما زلت ألمسـه.

تبلـور التقديـر في أماكـن وفـرص عمـل وكذلـك في جوائـز. في العام 2012 حصلـت على أولى الجوائـز، وهـي جائـزة وزارة الثقافـة والإعلام السـعودية آنـذاك عـن كتـابي **لغـات الشـعر**، ثـم تلا ذلـك نـيلي جائـزة

السلطان قابوس في النقد الأدبي عام 2017، لتتلو ذلك بعام واحد جائزة البحرين للكتاب عن كتابي **هموم العقل**، ثم ليتوج كل ذلك هذا العام بجائزة الدوحة للكتاب العربي، التي جاءت شاملة لكل المنتج.

إنها معالم لمسيرة أرجو الله أن يتمها في ما هو نافع، مسيرة كان لكثيرين فيها علي فضل كبير بعد فضل الله سبحانه وتعالى. وهؤلاء الكثيرون الذين ذكرت بعضهم يضمون أيضًا سيدة أود أن أختم بتقدير فضلها: إنها زوجتي جواهر أبانمي، التي لولا حبها الكبير وتحملها الكثير، فضلًا عن حملها عني أعباء العناية بالأبناء والبيت، لما تمكنت من إنجاز الكثير مما يراه الآخرون إنجازًا لي وحدي.

هذا ما حاولت اختصاره في هذه الصفحات اختصارًا لا بد أن يعتريه الخلل، لكثرة التفاصيل وضرورة الإيجاز، لكنني أرجو أن يكون ما ذكرت قادرًا مع ذلك على رسم الملامح العامة لتلك المسيرة، التي أرجو من العلي القدير أن يتمها في ما يحب ويرضى.

قطب مصطفى سانو

هنـاك في الجانـب الشرقـيِّ مـن **جمهوريَّة غينيـا بغرب إفريقيـا في مدينة كانـكا الآمنـة**، مدينـة الأوليـاء والعـلماء والوجهـاء، وعلى ضفـاف **نهـر ميلـو العظيـم الـذي ينبع منه نهـر النيجر**، ولـد ذلك الطفلُ الذي اشـتهر بين أترابـه **بالطفـل الهادئ** في العاشر من شـهر أبريل لعام ألفٍ وتسـعمئةٍ وسـتةٍ وسـتين مـن مـيلاد المسـيح ابـن مريـم، عليـه وعلى نبيِّنـا أفضـلُ الـصَّلاة وأتـمُّ الـسَّلام، في أسرة غنية، ميسـورة الحال، مشـهورة الصيت في الـصلاح والاسـتقامة والنخـوة والكرم، وكان والـده، **الحاج مصطفى الشـهير بسـيدفا**، رحمـه الله، آنـذاك أغنـى رجـلٍ في مدينة كانـكا التي تعدُّ المدينـة التجاريَّـة والاقتصاديَّـة للجمهوريَّـة، بـل كان أغنـى تاجر للماس في الجمهوريَّـة كلهـا، وكان سـخيًّا، جـوادًا، منفقًـا، يـأتي إليـه المسـاكين والفقـراء والغارمـون والمعـوزون مـن جميـع أنحاء الـبلاد ومـن البلدان

المجاورة، فيقضي لهم ما يتيسر له من حوائجهم. كان يعيل أُسَرًا كثيرة في السِّرِّ، خاصَّة الثكالى والأرامل واليتامى، ويوفِّر لهم ما يحتاجونه من مؤن غذائية وملابس ومستلزمات ضرورية. كان رحمه الله يبدأ يومه في داره الكبيرة الواسعة والمشهورة في ضاحية من ضواحي المدينة باستقبال المحتاجين والمعوزين، والإصلاح بين المتخاصمين، وتقديم الدعم والعون لمن انقطعت بهم السبل، ولا يملكون زادًا للعودة إلى قراهم ومدنهم ودولهم.

كان شديد الحبِّ للعلم والمعرفة، عظيم التوقير والتكريم للعلماء والأولياء، وكان يستقبلهم في منزله بعيدًا عن الأعين، ويستجيب لطلباتهم، ويوفِّر لهم سبل العيش الكريم والحياة الهانئة، ويزورهم بين الفينة والأخرى لتعرف أحوالهم وظروفهم، كان يتكفَّل خلال أعوام طويلة بدفع الرواتب الشهريَّة لجميع المدرِّسين والمدرِّسات في المدارس الحكوميَّة، الذين كانت رواتبهم تتأخر في بعض الأحيان من العاصمة، وذلك نتيجة الحصار الاقتصاديِّ الخانق الذي عاشت فيه الجمهوريَّة ردحًا من الزمن إبان الاستقلال من فرنسا، وكان يشترط على المسؤولين عن الرواتب ألا يبوحوا بذلك السِّرِّ لأحد في الدولة، خاصَّة كبار المسؤولين في الجمهوريَّة سترًا على الدولة مما كانت تعانيه من ظروف ماديَّة صعبة يرثى لها.

وبالنسبة إلى المدارس الإسلاميَّة الخاصَّة في مدينة كانكا، فقد ظل، أثابه الله، يدفع رواتب مدرِّسيها ومدرساتها سنواتٍ طويلةً، ذلك لأنَّ الدولة لم تكن أيامئذ تدفع شيئًا لتلك المدارس، إذ تعدها مدارس خاصة، كما كان ينفق بسخاءٍ على البعثات الأزهريَّة التي كانت تفد إلى مدينة كانكا، وبنى لهم فيلا خاصَّةً لإقامتهم، واستأجر لهم خادمًا يخدمهم طوال فترة إقامتهم.

إنَّ الحديث عن هذا الوالد الجليل العظيم يطول ويطول، وعسى الله أن يمدَّ في الأجل ليوسع الطفل الهادئ سيرته بشكل مستقلٍّ في مؤلَّف خاصٍّ بإذنه تعالى.

وأما والدة الطفل الهادئ، فهي تلك المرأة الصالحة العابدة القانتة الحاجة **عائشة كوما**، رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه، ابنة الشيخ الربانيِّ الوليِّ **قطب بن العالم الزيتوني الوليِّ إسماعيل كوما**، رحمهما الله، عالم **مدينة مامو المتعددة القبائل** الواقعة على بعد أربعمئة كيلو من العاصمة كوناكري، الذي كان يقضي نهاره وليله في الصلاة والصيام والأذكار، وتعليم الناس وتوجيههم والدعوة إلى الله؛ تعلمت منه ابنته الحاجة عائشة، رحمها الله، حبَّ العلم والعبادة، وحبَّ المساكين والفقراء. كان شغوفًا بقراءة القرآن الكريم، خدومًا للعلماء ولطلبة العلم الذين كانوا يفدون إلى مدينة كانكا، رؤوفًا بالمحتاجين من أبناء

السبيل، حنونًا على اليتامى والأرامل. كانت الوالدة تنفق كل ما يأتيها من مال على الفقراء والمساكين، وكانت تخرج صباح كلّ يوم خميسٍ وجمعةٍ لكنس المسجد الكبير وعددٍ من مساجد مدينتنا، وتنظيف دورات مياهها، وكانت تصلِّي صلاة الفجر في مسجد السنَّة الذي كان يبعد نحو كيلومتر تقريبًا عن بيتنا، كانت تقطعه في ظلام دامس؛ وكان الطفل الهادئ يرافقها إلى صلاة الفجر يوميًّا منذ أن كان في الخامسة من العمر، ويعود معها إلى البيت ليواصل الاستعداد للذهاب إلى المدرسة التي كانت هي الأخرى تبعد عن البيت بنحو كيلومتر.

على الرغم من ثراء الوالد، وامتلاكه عددًا من السيارات الفارهة كمرسيدس وغيرها، غير أنه حرص حرصًا شديدًا على أن يعيش أبناؤه وبناته عيشًا متواضعًا لا بذخ فيه، ولا تبذير، ولا إسراف، بل إنَّه كان يصرُّ على أن يذهبوا سيرًا على الأقدام في الصيف والشتاء إلى تلك المدرسة العتيدة العريقة العظيمة، **مدرسة نور الإسلام**، وهي المدرسة التي بناها، غفر الله له، في منتصف الستينيات، وجعل التعليم فيها مجانًا، وكان يُنفقُ عليها بسخاءٍ، ويدفع لسنوات طويلة رواتب المدرِّسين والمدرِّسات فيها، وكان يشترط على إدارة المدرسة أن تُعامِلَ جميع أبنائه وبناته فيها كما تُعامِلُ بقية الأطفال بلا تفريق ولا تمييز.

مـن هذيـن الأبوين الكريمين تعلَّـم الطفـل الهادئ التواضع والإيثار، والمثابـرة والـصبر، وحـبّ العلـم وتـوقير العلماء، وقـد لمس فيـه والداه، عفـا الله عنـهما، في وقـت مبكـر رغبتـه العارمـة في طلب العلـم والإقبال عليـه، ولاحظـا عليـه الحـرص العظيـم على التعلـم والمطالعة، بينما كان أقرانـه مـن الأطفال يقضـون معظم أوقاتهـم في اللعب والتجـوال داخل المدينـة، خاصَّـة يومـي الخميـس والجمعـة اللذين كانـا عطلة أسـبوعيَّة، كان الطفـل الهادئ يـقضي هاذيـن اليـومين في المكتبـة العربيَّـة الوحيـدة في المدينـة التـي كانـت تقـع بجـوار عمارة يملكهـا الوالـد، يقـرأ الكتـب المتوافـرة فيهـا، ويـشتري منهـا كل جديـد من الكتـب التـي كانت تصل إليهـا مـن العاصمة.

وقـد انتظـم الطفـل الهادئ في وقـت مبكـر من عمره في مجلس الشـيخ المجاهـد، والعـالم الجـريء، والواعـظ المفـوَّه، **الحاج محمـود بـن أحمـد كونـدي**، غفـر الله لـه، وجزاه عنَّا وعـن الإسلام خير الجـزاء، الذي كان يـدرِّس في مجلسـه بعـد صلاة الفجـر **مقامـات الحريري**، و**رسـالة أبي زيد الـقيرواني**. وقـد لازم الطفـل هـذا الشـيخ إلى حين انتقالـه إلى العاصمـة لمواصلـة دراسـته في المرحلـة الثانويـة، كما لازم الطفـل الهادئ ملازمـة الظـلِّ للإنسـان البعثـات الأزهريَّـة التـي بدأت تـأتي إلى مدينـة كانكا في نهايـة السـبعينيات، وتعلـم بشـكل خـاص مـن عـالمين جليـلين كانـا في

تلك البعثات الأستاذ **السيد محمود عطية، والأستاذ عبد الجواد عبد العظيم موسى**، رحمهما الله، مبادئ علم الفرائض، والنحو، والصرف، والبلاغة، وعلم الأصوات، كما درس في المرحلة المتوسطة على عدد من المشايخ المشهورين في مدينته، منهم **الشيخ المحدِّث العالم الرباني الحاج عمر توري، والشيخ الولي الإمام سيكو كابا، والشيخ الرباني اللغوي الحاج نابا مادي كمارا، والشيخ الجليل إبراهيم شريف**، وغيرهم.

وبعد أن أكمل الطفل الهادئ مرحلتي الابتدائية والمتوسطة حان الأوان للانتقال إلى العاصمة، لمواصلة دراسته النظامية في المرحلة الثانوية التي لم تكن متاحة في مدينته لدارسي اللغة العربية والدراسات الإسلاميَّة، هنالك في العاصمة انتظم في المدرسة الثانوية الوحيدة التي كانت تسمَّى **بماهاتيما غاندي**، وقد وجد الطفل فرقًا كبيرًا بين مدينته التي كانت تعقد فيها مجالس وحلقات متعددة للعلم، وبين العاصمة التي لم يجد فيها مجلسًا واحدًا للحلقات العلمية، مما جعله يبحث عن أي فرصة لملء الفراغ الكبير الذي كان يحس به بعد عودته من المدرسة؛ حتى إذا ما نما إلى علمه **وجود مركز ثقافي جديد كبير للجماهيرية العربيَّة الليبيَّة الشعبيَّة الاشتراكيَّة الديمقرطيَّة العظمى**، فيممه، وتعرَّف إلى القائم عليه، وعبَّر له عن رغبته القويَّة في قضاء معظم وقته داخل المركز، وقد رحَّب بهذا الطلب مستغربًا في الوقت

نفسه، ذلك لأنَّ رواد المركز قليلون، خاصَّة من كانوا في سن الطفل الهادئ من الشبان.

لقد كان لهذا المركز تأثير وأثر كبيران في حياة الطفل خلال السنوات الثلاث التي قضاها في العاصمة، حيث اتخذه بيته الثاني الذي يأوي إليه بعد عودته من المدرسة ظهرًا، ويبقى فيه إلى حين إغلاقه، وتوطدت العلاقة بين الطفل والقائم على المكتب، الذي بات يدلُّه على الجديد من الكتب التي كانت تأتي إلى المركز بين الفينة والأخرى.

وفي هذا المركز عرف الطفل كتبًا في علم الاجتماع، وكتبًا في الفلسفة، وكتبًا في علم النفس، وكتبًا في اللغة، وكتبًا في المنطق، ووجد نفسه ضائعًا بين هذه الكتب التي لم يسمع بها في مدينته قط، إذ إنَّ جلّ الكتب التي اطلع عليها كانت كتبًا في التفسير، والفقه، والتوحيد، والنحو، والصرف، والبلاغة، ولم يكن يعلم بوجود كتب عربيَّة في غير هذه الموضوعات؛ وحدِّث ولا حرج عن تلك السعادة العظيمة التي كانت تغمره يوميًّا وهو يطالع في تلك الكتب، ويحاول التعرف عليها وعلى محتوياتها.

ها هي السنونُ الثلاث تمرُّ كالبرق، والطفل الهادئ موزَّع وقته بين المدرسة الثانوية التي كان يأتي إليها صباحًا، والمركز الثقافي الليبي الذي كان يرتاده ظهرًا، وبيت أستاذٍ للغة الإنجليزيَّة كان يأتيه عصرًا

لتعلُّم مبادئ اللغة الإنجليزيَّة، كما كان يراجع ما تعلمه في المدرسة من مبادئ اللغة الفرنسيَّة مع أبناء عمومته الذين كانوا يدرسون في المدارس الحكوميَّة.

حتى إذا ما أعلن عن وصول منح دراسيَّةٍ لعدد من الدول العربيَّة، منها جمهورية مصر العربيَّة، والمملكة العربيَّة السعوديَّة، والجمهوريَّة العربيَّة السوريَّة، وأعلن عن تنظيم مسابقة للمترشحين على هذه المنح، تقدم الطفل الهادئ لها قاصدًا المنحة السعوديَّة، وفعلًا أعلن نجاحه مع عددٍ من المترشحين لتلك المنحة.

وفي العام نفسه أقيمت في الجامعة الزراعية المسماة جامعة فولايا بمدينة كنديا القريبة من العاصمة، دورة تدريبية لمدرسي ومدرسات اللغة العربية من جميع مدارس الدولة، وما أن علم بها الطفل الهادئ حتى قدم إليها وطلب من القائمين السماح له بالانضمام إليها ولو مستمعًا، وكانت الدورة في أسبوعها الأخير، ودخل في الامتحان النهائي لتلك الدورة، وكان العجب العجاب أن حصل على المركز الأول في تلك الدورة على مستوى الجمهوريَّة، ولم يصدق القائمون على الدورة هذه المفاجأة الكبرى لتلميذ من تلاميذ الأساتذة من جميع المدارس، وقد احتفى به في ذلك الحفل المهيب رئيس الدورة، وأثنى على مستوى الطفل الهادئ ثناء بالغًا.

لقد كان لهذه الدورة أثر كبير في نفس والد الطفل الهادئ الذي قرر على إثرها إرساله إلى المملكة العربية السعوديَّة للدراسة فيها على حسابه الخاص، انتظارًا للانتهاء من الإجراءات الروتينية للمقبولين على المنح الدراسية، وهكذا نسَّق، رحمه الله، **مع ابن عمه الحاج أنفالا نابي**، تغمده الله بواسع رحمته، إجراءات انتقال الطفل الهادئ إلى السعودية، وذلك بالتنسيق مع صديق سعوديّ لعمِّ الطفل الهادئ وكان يسمَّى **السيد برهان سيف الدين**، رحمه الله وطيَّب أثره، وكان مُطوِّفًا لحجاج جمهوريَّة غينيا لعقود مديدة. وقد توطدت علاقة قويَّة بينه وبين عمِّ الطفل الذي كان يأتي إلى الحج سنويًّا، وقد رحَّب السيد برهان بقدوم الطفل إلى بيته واعدًا بأنَّه سيعامله كمعاملته أبناءه، وسيوفِّر له كل ما يحتاجه إلى أن تنتهي إجراءات التحاقه بجامعة الملك سعود العريقة، وشاءت الأقدار أن ينتقل السيد برهان إلى رحمة الله قبل قدوم الطفل الهادئ إلى مكة المكرمة بشهر.

ها هو الطفل الهادئ يقدم إلى مكة المكرمة على الرغم من وفاة من كان قد تعهد باستضافته ورعايته طوال فترة انتظاره الانتهاء من الإجراءات. وحقًّا لقد وفى أبناء السيد برهان الأبرار، حفظهم الله، بوعد والدهم المغفور له، فوفَّروا للطفل الهادئ مسكنًا لائقًا وعيشًا كريمًا، وأصبح جزءًا من أفراد الأسرة، وكانت أم عبد الواحد، زوجة

السيد برهان، حفظها الله، تحرص حرصًا شديدًا على راحة الطفل الهادئ، وتعامله معاملة أبنائها وبناتها.

وفي هذه الأثناء كان والده يرسل إليه ما يحتاج إليه من مال لشراء الكتب وتلبية احتياجاته، وقد كان الطفل الهادئ قد سمع بوجود **جامعة عريقة بمكة المكرمة تسمى جامعة أم القرى**، وكان يدرس فيها أحد أبناء المرحوم السيد برهان سيف الدين يسمى خالدًا، فرغب الطفل منه في زيارة الجامعة والتعرف إلى مكتبتها الرائعة. وقد رحب أمين المكتبة به، ومنذئذ أضحى الطفل الهادئ يأتي إليها يوميًّا ابتداء من الساعة التاسعة صباحًا إلى الساعة الرابعة عصرًا عند إغلاقها، وقد توطدت أيضًا علاقة متميزة بينه وبين أمين المكتبة.

وإذا كان الطفل قد وجد في هذه المكتبة ضالته لملء وقته في الفترة الصباحيَّة، غير أنَّه كان يحس بفراغ كبيرٍ للفترة المسائيَّة، وهنا تذكر ما كان قد سمعه من قبل من **وجود مجالس علم متعددة في الحرم المكيِّ في سائر الفنون والعلوم الإسلاميَّة**، وهكذا حملته قدماه إلى حيث تلك المجالس وحلقات العلم المختلفة، وأخذ يتردد في غضون أسبوع على أكثر مجلس وحلقة علم، فاستقرَّ رأيه بعدُ على أن يلازم ذلك المجلس الذي كان يدرِّس فيه العالم النحوي الفذُّ النحرير **الشيخ محمد الأمين الشنقيطي التمبكتي**، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، وكان يدرِّس بين

العشاءين عند المئذنة الشماليَّة **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك،** وأصبح الطفل قريبًا من الشيخ الشنقيطي الذي كان يحبُّه، ويسمِّيه مبتهجًا ومسرورًا **ولدي** لما لمسه فيه من ذكاء، وسرعة بديهة، وقوة ذاكرة؛ وكان هنالك أيضًا مجلس آخر يحضره الطفل الهادئ في علم الصرف وعلم الحديث، حيث كان يدرِّس **الشيخ محمد الأمين الأثيوبي،** غفر الله له وتغمَّده بواسع رحمته، **لامية الأفعال لابن مالك في الصرف،** ومتن **البيقونيَّة في علم الحديث،** وكان درسه يبدأ بعد صلاة العشاء مباشرةً إلى الساعة التاسعة مساء، وقريبًا من هذا المجلس كان ثمَّة مجلس ثالث في **تفسير ابن كثير** للشيخ **محمد سعيد الأثيوبي،** عفا الله عنه، وكان درسه يبدأ بعد الساعة التاسعة ويستمر إلى الساعة العاشرة والنصف مساء.

بين مكتبة جامعة أم القرى العامرة، ومجالس العلم المختلفة في الحرم المكيِّ، كان الطفل الهادئ يعود إلى سكنه الواقع في العزيزيَّة الجنوبيَّة منهكًا ومرهقًا، يركن بعده إلى النوم الذي لا يفيقه منه إلا صوت المؤذن. ودأب الطفل الهادئ على قضاء يومي الخميس والجمعة اللذين كانا عطلة رسميَّة في المملكة العربية السعودية في تلخيص ما تعلَّمه من المشايخ، وما قرأه من كتب.

وبعد مضي عامين تقريبًا من هذه الرحلة الشائقة العظيمة كان الطفل الهادئ على موعد مع قدرٍ جديد من أقدار الله، إنَّه الانتقال إلى الدراسة في مؤسسة جامعيَّة عريقة تعرف بأم الجامعات السعوديَّة، وإحدى كبريات الجامعات في الشرق الأوسط، بل في العالم، وتعرف أيضًا بجامعة القادة والوجهاء، إذ إنَّها خرَّجت كبار القادة والعلماء والمفكِّرين في المملكة العربيَّة السعوديَّة وفي عددٍ من دول العالم، إنَّها **جامعة الملك سعود** الواقعة في ضاحية درعية العزِّ والنخوة بمدينة الرياض بالمملكة العربيَّة السعوديَّة، وكان ذلك العام الذي انتقل فيه الطفل الهادئ العام التاريخيَّ، الذي انتقلت فيه الجامعة إلى مبناها الجديد ذي الفنِّ المعماريِّ الفذِّ الرائع الفريد في ذلك العصر.

في هذه الجامعة وجد الطفل الهادئ نفسه في عالم شبيهٍ بالخيال، بعيدٍ عن كل ما خطر بباله، وعن كلِّ ما سمعه من الأقران والأقارب عن عالم الجامعات والمعاهد؛ ها هي مدينة جامعيَّة متكاملة يوجد فيها كلُّ ما تحتاج إليه المدن الحديثة، مبانيها غايةٌ في الروعة والجمال، مرافقها تضم بين جنباتها كليَّات متعددة، ومطاعم متنوعة، ومراكز تجاريَّة، وملاعب رياضيَّة، ومسجدًا فخمًا، وبهوًا عظيمًا، وفيها مكتبةٌ قلَّ نظيرها في ذلك الوقت ذاتُ طوابقَ خمسةٍ تعجُّ بما لا يقلُّ عن ثلاثة

ملايين كتابٍ من أنفس المصادر والمراجع في سائر الفنون والعلوم والمعارف النظريَّة والتطبيقيَّة والتجريبيَّة.

في هذه الجامعة هيئةُ تدريسٍ يشار إليهم بالبنان علمًا وتجربةً وخبرةً ومعظمهم تخرجوا في أرقى الجامعات والمعاهد العالميَّة الشهيرة في الغرب والشرق، وفيها إدارةٌ حكيمةٌ تتميز بالانضباط والصرامة والالتزام والمهنيَّة والشفافيَّة لا مكان فيها للمحسوبيَّة ولا للفساد.

هنا بدأت المسيرةُ العلميَّةُ النظاميَّة للطفل الهادئ الذي ابتدأها بالانضمام إلى معهد اللغة العربيَّة، الذي كان يؤهِّل الطلبة الوافدين في اللغة العربيَّة قبل لحاقهم بكليَّاتهم، وكانت مدَّة الدراسة فيه تتراوح بين ستة أشهر وسنتين؛ وها هو الطفل الهادئ يتخرج في هذا المعهد بعد ثلاثة أشهر فقط من التحاقه به، حيث أوصت إدارة المعهد بالسماح له استثناء للحاق بكليَّته، وعدم الحاجة إلى بقائه لأكثر من ثلاثة أشهر؛ وانتقل الطفل الهادئ للدراسة بقسم الدراسات الإسلاميَّة بكلية التربية (شعبة الفقه وأصوله)، فدرس على أيدي عددٍ غير يسير من فطاحلة العلم البارزين في علوم الحديث، والفقه المقارن، وأصول الفقه، والعقيدة، والتفسير، والقراءات؛ ومن أكثر أولئك العلماء الكبار، جزاهم الله عنَّا خير الجزاء، تأثيرًا فيه وفي فكره ومنهجه وطريقته في التأليف ذلكم العالمُ الموسوعيُّ الكبيرُ الجليلُ، **أبو المنتصر**

محمـد رواس قلعـه جي، رحمه الله، إذ تعلَّـم على يديه صناعة التأليف وفنَّ الكتابـة، فقـد درَّبـه، أجـزل الله له المثوبـة والأجر، على طريقة اسـتخراج البطاقـات مـن الكتـب، وصياغة العبـارات، واختيار العناويـن، كما فتح لـه بـاب مكتبـه ومنزله الكائـن في الحـي الجامعيِّ الخاصِّ لسـكن أعضاء هيئـة التدريـس، وكان يعـدُّه أحـد أبنائـه الأوفيـاء، المنـتصر، والمعتصم، والمعتـز، حفظهـم الله، وأقـرَّ بهـم عين الأسـتاذ الوالد.

وبعـد ثلاثـة أعـوام ونصـف عـام أكمـل الطفـل الهادئ المرحلـة الجامعيَّـة، وحصـل على **درجـة بكالوريـوس في التربيـة بتقديـر "امتيـاز" مـع مرتبـة الشرف الأولى، وكان الأول على الدفعـة التـي تخرجـت ذلـك العـام على مسـتوى الجامعـة**، كما مُنِـحَ لأول مـرَّة في تاريـخ الجامعـة عام تخرُّجـه **درع الطالـب المثـالي للجامعـة**، الـذي يعطى لأفضـل طالبٍ على مسـتوى الجامعـة من حيـث المعدل التراكمـيّ عند التخـرج، ومن حيث المشـاركة الدائمـة في الأنشـطة الثقافيَّـة والعلميَّة والرياضيَّة. وقد اشـتهر الطفـل الهادئ خلال سـني الدراسـة في المرحلة الجامعيَّة **بصيَّـادِ وحصَّادِ الجوائـز**، إذ نـال مـا يزيـد على ثلاثين (30) ميداليَّـة ذهبيَّـة في المسـابقات الثقافيَّـة والعلميَّـة التي كانـت تنظمها الجامعة في حفـظ الحديث النبويِّ، والمسـاجلة الشـعريَّة، والخطابـة، والقـراءة الحـرَّة، والبحـوث الثقافيَّـة،

والبحوث العلميَّة، وكان الطفل الهادئ يفوز بالمرتبة الأولى في تلك المسابقات كلها على مدار ثلاث سنوات.

وتقديرًا لذلك التميُّز والتفوق، قررت الإدارة العليا للجامعة استثناءً منح الطفل الهادئ منحةً دراسيَّة أخرى لمواصلة الدراسات العليا في مرحلة الماجستير بالقسم نفسه. وكانت المفاجأة أيضًا؛ إذ أنهى الدراسة المنهجيَّة والبحث التكميليَّ لنيل درجة الماجستير خلال عامٍ ونصف عامٍ بدلًا من عامين، وقد كان ذلك مفاجأة كبيرةً لقسم الدراسات الإسلاميَّة، حيث لم يسبق لطالب منذ تأسيسه أن قدَّم رسالته للمناقشة في أقلَّ من عامين، ولله الحمد، ونوقشت الرسالة في إحدى قاعات الكليَّة الكبيرة، وقد حضرها جمعٌ غفيرٌ من الأساتذة والطلبة، ونالت درجة امتياز.

وبحصول الطفل الهادئ على درجة الماجستير وجد نفسه أمام عددٍ من العروض الوظيفيَّة التي قدِّمت له، بدءًا بعرض التدريس بكلية التربية التي كان يدرس فيها، ومرورًا بعروضٍ للتدريس في عدد من معاهد العلوم الإسلاميَّة والعربيَّة التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود في إندونيسيا وموريتانيا وأميركا، وانتهاء بتوليه الأمانة العامَّة للشؤون الدينيَّة في بلده، وذلك منصب يعادل منصب وزير الشؤون الدينيَّة.

على الرغم من مكانة وأهميَّة هذه العروض المغرية، كان الطفل الهادئ قد قرر منذ زمنٍ ألا يقبل أي عرض لا يمكِّنه من متابعة دراسته لمرحلة الدكتوراه، وذلك بناءً على وصيَّة ونصيحة أستاذه ومربِّيه **أبي المنتصر محمد رواس قلعه جي**، رحمه الله، وبينما هو حائر أمام العروض المختلفة، فإذا بعرض جديد من **الجامعة الإسلاميَّة العالميَّة بماليزيا**، التي كان مديرها المغفور له المفكِّر الإسلاميُّ **الشهير عبد الحميد أبو سليمان**، رحمه الله وعفا عنه، في زيارة لمدينة الرياض، ورغب في مقابلة الطفل الهادئ، وبعد المقابلة قرَّر قبول الطفل الهادئ محاضرًا بكليَّة معارف الوحي والعلوم الإنسانيَّة، وطالبًا في الوقت نفسه للدكتوراه في كليَّة الحقوق، وقد لقي هذا العرض قبولًا وارتياحًا.

هكذا ساق القدر الطفل الهادئ إلى **بلاد أرخبيل مالايو**، حيث دولة ماليزيا الاتحاديَّة، وعاصمتها كوالالمبور الجذابَّة التي تعدُّ مدينة في حديقة. هنا كانت البداية الفعليَّة الحقيقيَّة مع عالم التأليف والكتابة والنشر والإنتاج، إذ قد كانت تلك الجامعة قبلة كثير من كبار المفكِّرين والعلماء المعاصرين المتخصصين في العلوم الشرعيَّة، والعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة والتطبيقيَّة، وقد توافد ثلة من خيرة علماء ومفكري العصر من جميع الأصقاع، وكان التنافس بين الأساتذة في مجال البحث والدراسة والتأليف على أشده، خاصَّة أن الغالبية العظمى منهم لم

يكونـوا ماليـزيين، وكانـت عقـود العمل التـي تربطهم بالجامعـة مرتبطة بما يقدِّمونـه مـن إنتاج علمـيٍّ راقٍ، وما ينشرونه من أبحاث ودراسـات، فـضلًا عـن أن الترقيـات إلى الدرجـات العلميَّـة مرتبطـة هـي الأخـرى بالـنشر والتأليـف والإنتاج.

أمـام هـذا الجـوِّ الجديـد وجـد الطفـل الهادئ نفسـه أمـام تحـدِّيين اثـنين لا ثالـث لهما، أولهما تحـدٍ متمثِّـلٌ في ضرورة الانتهـاء مـن مرحلـة الدكتـوراه، والتحـدي الثـاني يتمثـل في البـدء بـنشر عـدد مـن الأبحاث والمقـالات العلميَّـة في المجلات العلميَّـة المعروفة. وبالنسـبة إلى التحدِّي الأول، فقـد شـمَّر عـن سـاعد الجـدِّ والاجتهـاد، وسـهر الليـالي، فأنهى أطروحـة الدكتـوراه خلال عـامٍ ونصـف عـام، وقدَّمهـا لمشرفـه القديـر أسـتاذ القانـون الجنائي السـودانيِّ الشـهير **السـيد محمد عطـا**، حفظه الله. وقـد كان ذلـك مفاجـأة كـبيرة للكليـة والجامعـة معًا، ذلـك لأنَّ الجامعة لم يسـبق لها أن قبلـت أطروحـة في أقـل من عـامين، بل إنهـا في الغالب لا تقـل عـن ثلاث سـنوات. وبعـد فحـصٍ دقيـقٍ وتمحيص عميـقٍ قررت الكليَّـة قبـول الأطروحـة وإرسـالها إلى الممتحـنين، واعتبـار مـا بقـي من أشـهر لإكمال المـدة النظاميَّـة لتسـلم تقاريـر الممتحـنين، وبفضـل الله وتوفيقـه وصلـت التقاريـر، ومنحت لجنة المناقشـة الطفـل الهادئ **درجة الدكتـوراه في الحقـوق عـن أطروحـة حـول الاجتهـاد في فهـم النـص مع**

التوصية بطباعتها ونشرها. فأصبح منذ ذلك التاريخ حاملًا درجة دكتوراه الفلسفة في الفقه وأصوله، فأستاذًا مساعدًا بالجامعة.

وأما التحدِّي الثاني المتمثل في التأليف والنشر والإنتاج، فقد تصدَّى له الطفل الهادئ بالبدء فور حصوله على الدكتوراه بنشر جملةٍ حسنةٍ من الأبحاث والدراسات العلميَّة القيِّمة، التي أعدَّها خلال فترة انتظاره مناقشة الأطروحة، وبلغ عدد تلك الأبحاث والدراسات، بفضل الله وتوفيقه، ثلاثة أضعاف الحدِّ الأدنى المطلوب للترقية من درجة أستاذ مساعد إلى درجة أستاذ مشارك، أي ثلاثة كتب علميَّة، وسبعة أبحاث علميَّة، وكان الحد الأدنى للأبحاث المطلوبة ثلاثة أبحاث علميَّة منشورة في مجلات علميَّة محكَّمة.

وبما أنَّ الفترة الزمنية التي كان يجب أن تفصل بين درجتي الأستاذ المساعد والأستاذ المشارك هي عامان، فقد اضطر الطفل الهادئ إلى الانتظار من جديد إلى حين انتهاء تلك الفترة، وواصل في تلك الأثناء في إعداد ونشر الأبحاث والدراسات، **وترقى بعد العامين المطلوبين إلى درجة أستاذ مشارك**.

وبموازاة مع مهمَّة التدريس بالكليَّة والتأليف والنشر والإنتاج عهدت الجامعة إلى الطفل الهادئ القيام بمهام إداريَّة، حيث عيَّن نائب عميدٍ لشؤون الطلبة الوافدين، ولشؤون التعليم ما قبل الجامعي، كما

عيِّن مديـرًا لمكتـب العلاقـات الخارجيَّـة، ثـم مديـرًا مؤسِّسًـا للمعهـد العالمـيِّ لوحـدة الأمـة. ولم تثنـه هذه المهـام الإداريَّة من مواصلـة الإنتاج والـنشر والتأليـف، إذ إنَّـه بعد مضي عامين على ترقيته من أسـتاذ مسـاعد إلى أسـتاذ مشـارك قـدَّم مـا يزيد على عشرين بحثًا، وخمسـة كتـب للترقية مـن درجـة أسـتاذ مشـارك إلى درجـة الأسـتاذيَّة. وقـد كان ذلـك أيضًـا مفاجـأة كبرى لـعمادة الكليـة، بل لإدارة الجامعة، ذلـك لأنَّه لم يمض على حصولـه على درجـة الدكتوراه سـوى أربعة أعوام تقريبًـا، وعلى حصوله درجـة الأسـتاذ المشـارك سـوى عـامين اثـنين فقـط، فأنَّـى لـه الترقية إلى درجـة الأسـتاذيَّة، فـضلًا عـن أنَّـه لا يـزال في عنفـوان شـبابه، ولما يبلـغ بعـدُ الأربـعين مـن العمـر، بـل إنه في نصـف العقـد الثالث مـن العمر.

والتزامًـا بالشـفافيَّة، قـرَّرت الجامعة إرسـال كتبه وأبحاثه ودراسـاته إلى خـارج ماليزيـا وبسريَّـة تامَّـة، للنظـر في مـدى إمكانيَّـة ترقيتـه إلى درجـة الأسـتاذيَّة. وكانـت المفاجـأة التي لا تنسـى وصول ثلاثـة تقارير مـن جهـات خارجيَّة يـوصي جميعها بترقيتـه إلى الأسـتاذيَّة، ليصبح مذئذٍ **أصغر أسـتاذٍ حاصل على درجة الأسـتاذيَّة** عرفته الجامعة منذ تأسيسـها، إذ كان عمـره عامئـذٍ **خمسـة وثلاثين عامًـا** بفضـل الله وتوفيقه.

وهكـذا تمكـن الطفل الهادئ من تحويل التحـدِّيين إلى فرصتين ثمينتين غاليـتين عظيمـتين، وأقبـل بثقـةٍ وثبـاتٍ وإيمانٍ على التأليـف والـنشر

والتدريس والإشراف، إذ ألَّف بعد حصوله على درجة الدكتوراه عام ألف وتسعمئة وستة وتسعين أربعة وعشرين (24) كتابًا، ونشر ما يزيد على خمسة وثمانين (85) بحثًا، وأشرف على خمسة وأربعين (45) طالبًا وطالبة في درجتي الماجستير والدكتوراه، وشارك في مئات المؤتمرات والندوات في أنحاء العالم.

على أنَّه من الحريِّ تقريره أنَّ الطفل الهادئ كان سجَّل لنيل دكتوراه الدولة في العلوم الإسلاميَّة بجامعة الزيتونة، إبَّان حصوله على درجة الماجستير من جامعة الملك سعود، وقبل في المعهد الأعلى لأصول الدين بالزيتونة بإشراف العالم الجليل الوقور الدكتور حمودة السعفي، رحمه الله، وبعد مضي أربع سنواتٍ قدَّم أطروحته لنيل دكتوراه الدولة عام ألف وتسعمئة وثمانية وتسعين، وبقيت الأطروحة في انتظار تقارير الممتحنين إلى عام ألفين وواحد، ومنح الطفل الهادئ الدرجة **بتقدير مشرِّف جدًّا** من أقدم جامعة إسلاميَّة، وهي جامعة الزيتونة زادها الله تشريفًا وثباتًا.

وبعد أن أمضى الطفل الهادئ ستة عشر عامًا بين أروقة الجامعات والمعاهد والمؤتمرات، ساقه القدر إلى العودة إلى وطنه للعمل في المجال السياسيِّ الذي بدأه وزيرًا للشؤون الدينيَّة، فوزيرًا للتعاون الدولي،

ثـم وزيـر دولـة للشـؤون الدبلوماسـيَّة ومستشـارًا دبلوماسـيًّا لرئيـس الجمهوريَّة.

وتلـك تجربـة أخرى أمضى فيهـا الطفل اثني عشر عامًـا، وقف خلالها عـن كثـب على كـثير من التجـارب والخبرات التي لم تكن تخطـر بباله يوم أن كان طالبًـا، فمدرِّسًـا، ثم إداريًّا.

إنَّ هـذه التجربـة زادت الطفـل الهادئ تواضعًـا، وتـؤدةً، وإمعانًـا، وفـهمًا، وإدراكًا دقيقًـا لما ينبغـي أن تكـون عليه العلاقـة بين المثال (النصِّ المقـدَّس) والإنسـان، والواقـع، وبين الثابـت والمتـغير والمتحوِّل.

وأمـام تكاثـف التحدِّيـات الفكريَّـة، وتتابـع التطـورات الثقافيَّـة، وتصاعـد التـغيرات الاجتماعيَّـة، وتنامـي الإكراهـات السياسـيَّة، وتلاحـق الإملاءات الاقتصاديَّـة، استشـعر الطفـل الهادئ وجود حاجة ماسَّـة إلى اللـواذ بمسـألتين فكريَّـتين مهمَّـتين، **وهمـا التجديـد المسـؤول لـلتراث الإسلامـي الزاخـر، والاجتهاد المنشـود في قضايا الـعصر بنوازله ومسـتجداته**، بحسـبانهما الأداتين الضرورتين القـادرتين على تمـكين الإنسـان المسـلم مـن التعامـل الأمثـل مـع سـائر صنـوف التحدِّيـات والتطـورات والتـغيرات والتحـولات كيـف كان نوعهـا وكمُّهـا، ومـن ثـمَّ اتخذهمـا الطفـل الهادئ مجـالين أسـاسين للتأليـف والنشر، وقـد كانتا مسـألتين فكريَّـتين اسـتولتا على فكـره وعقلـه في فترة مبكـرة مـن حياتـه

العلميَّـة، ولما تفارقـاه حتـى هـذه اللحظـة، إذ كان يستشـعر أهميتـهما وضرورتهما منـذ أن كان باحثًـا عـن العلـم على الرُّكَـب في الحـرم المكـيِّ، وطالبًـا في مرحلتـي البكالوريـوس والماجسـتير بجامعـة الملـك سـعود، ومدرِّسًـا في الجامعـة الإسلاميَّـة العالميَّـة بماليزيـا، وكان يتسـاءل بمـرارة عـن سرٍّ توجـس كـثيرٍ من عـلماء الأمَّـة المعاصريـن عن أدنـى حديث في هـاتين المسـألتين، بـل كان يبحث عـن سرِّ قبول السـواد الأعظم من أهل العلـم بتعـذر إمكانيَّـة تجديد الدين فـهمًا وتطبيقًا حينًـا، وبعدم الحاجة إلى الاجتهـاد المتجـدِّد فـيما اجتهـد فيـه السـابقون من أهـل الاجتهـاد، إيمانًا منهـم بـأنَّ تلك الاجتهادات السـابقة باتـت تراثًا لا يجوز المسـاس به، إن بمراجعـة أو تطويـر أو مخالفـةٍ، بـل إنهـا في خلدهـم لا تـزال كلها صالحة لزماننـا وأحوالنـا، ويجـب التخريـج عليهـا وعـدم الخـروج عليهـا، كما يجـب الاسـتناد إليهـا واسـتصحابها لتوجيه نـوازل العصر ومسـتجداته.

وأمـام ذلـك التوجـس والتخـوف والتردد مـن التجديـد والاجتهاد، قـرَّر الطفـل الهادئ التركيـز على هـاتين المسـألتين المنهجيَّـتين، التجديـد والاجتهـاد، في مؤلفاتـه وأبحاثه ومؤتمراته وندواته ودروسـه وحواراته، تأصـيلًا وتحريـرًا وتحقيقًـا وتطبيقًا.

وبالنسـبة إلى مسـألة التجديـد فقـد ارتـأى أن يؤصِّـل القـول فيها من خلال الدعـوة المكـرورة إلى تجديـد علم أصول الفقه، وذلـك باعتباره أمَّ

العلـوم الشرعيَّـة، وأهـمَّ علمٍ مـن علوم الاجتهـاد، كما قـرَّر ذلك الإمام الـرازي في **محصولـه** عندمـا قـال: "وبهذا تـبين أنَّ أهمَّ علـم للاجتهاد هو علـم أصـول الفقـه"، وإنَّما كان هـذا العلـم كذلك لاستمداده مبادئه من أربعـة علـوم شرعيَّـة، وهي علـم اللغة، وعلـم الحديث، وعلـم الكلام، وعلـم الفقه.

ولئـن كان هـذا العلـم يمثِّـل أهـمَّ علم يحتـاج إليـه المجـدِّد والمجتهد بحسـبانه المنهجيَّـة العلميَّـة الرصينـة المعينـة على تجديـد الفهـم وتوجيـه النظـر وتسـديد التطبيـق، فـإنَّ تجديده مفـضٍ، لا محالـة، إلى تجديد الدين فـهمًا وتطبيقًـا. وقـد أثبـت الطفـل الهادئ في كتابه قراءة معرفيَّـة في الفكر الأصـوليِّ: التشـكل والتجديد، إمكانيَّة تجديد هـذا العلم، وذلك بإضافة مبـادئ علـوم أخـرى إلى مباحثـه وموضوعاتـه ومسـائله، وتتمثـل تلك المبـادئ فـيما يعرف اليـوم في دنيا الناس بمبـادئ العلوم الإنسـانيَّة، وهي النظريـات والمناهـج البحثيـة التـي تتوافـر عليها هـذه العلـوم التي تدور مباحثهـا حـول الإنسـان والواقـع الـذي يعيش فيه هـذا الإنسـان ضبطًا لـكلِّ مـا يؤثِّـر فيه ولـكلِّ مـا يتأثَّر بـه، الأمر الـذي يترتـب على إضافتها إلى مبـادئ علـم أصـول الفقـه تمكين المتشـبع مـن العلوم الشرعيَّـة، التي تتعامـل مـع النـصِّ المقـدَّس مـن فهـم الإنسـان الذي يـراد تنزيـل حكم

النـصِّ المقـدَّس على أفعالـه، وفهم الواقع الـذي يراد تطويعـه لمقتضيات النـصِّ المقدَّس.

وعليـه، فـإنَّ تجديد الدين تجديـدًا حقيقيًّا مرهونٌ بتجديـد ذلك العلم الـذي يجـب على المتصدِّي للاجتهاد والإفتاء التشـبع منه، والإشراف على مبادئـه ومباحثـه. وهكـذا أمضى الطفـل الهادئ ردحًـا مـن الزمـن يدافع فيـه عـن هذا الـرأي، ويدعو إليـه في كل محفل من المحافـل العلميَّة حول التجديد والاجتهاد.

وبالنسـبة إلى المسـألة الثانيـة، **مسـألة الاجتهـاد المنشـود**، فقـد أوسـع الطفـل الهادئ هـذه المسـألة هـي الأخـرى تأصـيلًا، وتقريـرًا، وتحقيقًـا لأهـمِّ قضاياهـا ومسـائلها، فأثبـت مـن خلال كتبـه المختلفـة عـن أهميَّة تأصيـل وتحقيـق العديد من قضايا هذه المسـألة بـدءًا بمفهوميه: الاجتهاد النظـريِّ والاجتهـاد التطبيقـيِّ، ومـرورًا بنوعيـه: الاجتهـاد الفـرديِّ والاجتهـاد الجماعـيِّ، ووقوفًا عند مسـائل كلا النوعين: المسـائل الخاصَّة والمسـائل العامَّـة، وعروجًـا على أهميـة تجديـد القـول في أدواتـه وعلومه المؤهلـة لـه في ضـوء الـعصر الراهـن، وانتهـاء بالآثـار المترتبـة عليـه من حيـث الإلـزام بتلـك الآثـار وعـدم الإلزام بهـا. كما دعـا الطفـل الهادئ في سـائر مؤلفاتـه إلى ضرورة الانتقـال مـن الحديـث عن أهميَّـة الاجتهاد وضرورتـه في هـذا الـعصر إلى العمـل على تكويـن جيلٍ من النـشء قادر

على القيام بشعيرة الاجتهاد في الفهم والتطبيق، سواء في المسائل التي سبق للأسلاف المنعمين الاجتهاد فيها، أم في المسائل التي لم يجتهدوا فيها، وذلك من خلال صياغة الدرجات المطلوبة في كل علم من علوم الاجتهاد في شكل مقررات دراسية تدرس في مؤسسات التعليم العالي لطائفة من طلبة العلم، يتوافرون على الحد الأدنى من الذكاء والفطنة والاستعداد العقلي.

وقد أخذ الحديث عن هذا الهم التجديدي مساحة كبيرة في كتابات الطفل الهادئ عن المسألة الاجتهاديَّة، وبات ينظر إليه بوصفه أطروحته الفكرية التي سيزيدها في قابل الأيام تأصيلًا وتحقيقًا وتحريرًا، حتى يغدو واقعًا ملموسًا مطبقًا في الأرجاء، إيذانًا بميلاد مرحلة جديدة يمكن للأمة فيها التمييز بين المؤهلين لممارسة صناعة الاجتهاد بسبب تمكنهم من علوم الاجتهاد، وهم المؤهلون المؤتمنون حقًّا لتطبيب الأديان، والمتجاسرين على هذه الصناعة مع عدم تمكنهم من علوم الاجتهاد، وهم الخطرون على أديان الناس، تمامًا كما تعرف الأمة اليوم المؤهلين لتطبيب الأبدان بسبب تمكنهم من علوم الطب، والمتجرئين على تطبيب أبدان الناس دون أدنى معرفة بالطب.

ونظرًا إلى التعقيد والتشابك الغالب على نوازل العصر ومستجداته، فقد دعا الطفل الهادئ في كتاباته إلى الاعتصام بالاجتهاد الجماعيِّ

للبت في النوازل والمسائل العامَّة، التزامًا بالمنهجيَّة النبويَّة في التعامل مع النوازل والمستجدات، وتجنيبًا للمجتمعات من التنازع والتدابر والتخالف إزاء قضاياها العامَّة.

إنَّ جملة المؤلفات والدراسات والأبحاث التي منَّ الله بها على الطفل الهادئ على تأليفها حول المسألة الاجتهاديَّة، نالت ولا تزال تنال استحسانًا وقبولًا وإقبالًا بفضله تعالى ومنِّه وكرمه.

والله يسأل أن يتقبل منه ما سطرته أنامله من دراسات وأبحاث ويجعلها مما ينفع الناس ويمكث في الأرض، كما يسأله أن يمدَّ له في الأجل ليواصل التأصيل والتحقيق والتحرير والتوضيح لكل ما يتصل بهاتين المسألتين المنهجيَّتين المهمَّتين في كل عصر ومصر، فهما تعدَّان بحقٍّ من الفروض الدينيَّة العظيمة، والمصالح الضروريَّة المعاصرة، تمكينًا للأمة الوسط من استئناف ريادتها الفكريَّة وشهودها الحضاريِّ ومكانتها المعرفيَّة بين أمم الأرض وشعوبها.

جائزة
الدوحة
للكتاب
العربي